د. هيفاء بيطار

موت البجعة

مجموعة قصصية

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1998

تصميم الغلاف للفنان :اسماعيل نصرة

الفهرس :

**

المجنون

صالة انتظار فسيحة، أنيقة، مبردة، تزين زواياها نباتات خضراء ذات أوراق عريضة لماعة، وقد ارتفعت أغصانها، فساعدتها دعامات خشبية رقيقة في الامتداد، كراسٍ جلدية زرقاء تنشر زرقتها إحساساً بالراحة والهدوء، لافتة مستطيلة الشكل كتب عليها ممنوع التدخين، وصورة سيجارة مشطوبة بإشارة ضرب مائلة، لكم تمنت أن تشعل سيجارة، وهي تنتظر دورها في عيادة أشهر طبيب للأمراض النفسية، لكنها أذعنت للأمر المعلق على الجدار. أكثر ما لفت نظرها ساعة خشبية تبدو من القرون الوسطى بعقاربها الضخمة، وأرقامها اليونانية، كانت وحيدة مع دقات الساعة، وأحست وهي تنتظر بفارغ الصبر موعدها لملاقاة الطبيب. إنها تقف وجهاً لوجه أمام الزمن، وأخذ إحساسها به يتعاظم حتى شعرت أن له وزناً. وفجأة تفتقت جملة في ذهنها: الزمن آلة الموت، فتنتها تلك العبارة رغم أنها لم تفهمها إلا بشكل غامض ومبهم، ولم يكن من عادتها

الاهتمام بالأفكار والعبارات العميقة، ولم ترغب يوماً أن تقرأ كتاباً. كانت تتهم زوجها دوماً وبسخرية مبطنة في البداية ثم معلنة فيما بعد بأن الكتب تسبب الصداع، والجنون، واكتفت بأن تقرأ أخبار النجوم، والأبراج، والمواضع الخفيفة، لكنها لم تلبث أن كررت تلك العبارة التي فتنتها –الزمن آلة الموت– محاولة الغوص في المعاني اللانهائية التي تثيرها فيها هذه الجملة..

كان مكتب الممرضة الذي يحتل الزاوية اليمنى من القاعة فارغاً، أحست برضى جرّاء كون المكان خالياً. قالت لنفسها: هذا أفضل، كنت سأضطر لخوض حديث مع الممرضة، وقد تعتقد أنني مجنونة أو مصابة بمرض نفسي، وتساءلت: لماذا يعتبر كل من يقصد عيادة طبيب نفسي مجنوناً؟ لكنها للحال أدركت أنها من هؤلاء الناس الذين يطلقون حكماً على كل مريض يقصد عيادة طبيب نفسي، حكماً جاهزاً وساخراً، بل فيه احتقار، واستصغار لأولئك المرضى النفسيين، لكأنهم صنفوا خارج الجنس البشري. ما يهمها الآن ألا يعرف أحد أنها قصدت عيادة طبيب نفسي، لكنها لم تقصده لعلّة فيها بل فيه هو –الزوج– الذي لم تعد تناديه باسمه بعد عامين من الزواج، بل صار اسمه أنت وهو بدوره صار يناديها أنت، أنت وأنت الأسماء الحقيقية للأزواج، لأن الخصوصية والسحر لكل منهما يذوبان أو يتبخران في روتين قاتل.

قامت تتمشى في القاعة الفسيحة، وتقترب من لوحة يزيد طولها على المتر كما قدرت وعرضها حوالي نصف متر، تمثل شاباً مستلقياً على عشب أخضر بكسلٍ واستسلام، وثيابه رثة، ويضع على رأسه قبعة من القش مهترئة ومثقبة، وقد مالت إلى الأمام بسبب يديه المتصالبتين خلف رأسه وهو يغمض عينيه باسترخاء لذيذ مستمعتاً بدفء أشعة شمس تحسها تغمر فضاء اللوحة، فيما رسمت شفتاه ابتسامة سعادة صريحة، استفزها الشاب في اللوحة، وتساءلت حانقة: ما الذي يدفعه للابتسام؟ واتهمت الطبيب بأنه غير موفق في اختيار لوحة غرفة الانتظار... لكنها تساءلت وما أدراني مغزى هذه اللوحة؟ إن ابتسامة السعادة والسخرية الطافحة على وجه الشاب قد تكون مقصودة من قبل الطبيب، لعله يريد أن يوصل مرضاه إلى مرحلة يقدرون فيها على الإحساس بتلك السعادة البلهاء، لكن فكرة انبثقت في ذهنها تذكرها أن ابتسامة الشاب استفزتها لأنها تشبه ابتسامة زوجها. خفق قلبها مؤكداً حقيقة الشبه، أجل زوجها يبتسم دوماً تلك الابتسامة مذ أصابه الجنون...

انتفضت مجفلة من صوت الساعة الخشبية تعلن تمام الثامنة، إنه موعدها مع الطبيب، نظرت بآلية إلى ساعتها. كانت تشير إلى التوقيت ذاته أيضاً، وما كادت ترفع نظرها عن الساعة حتى فتح باب أبيض عريض وأطل الطبيب

الأربعيني بقامته الفارعة وأناقته الملفتة ووجهه الوسيم، وحياها بابتسامة قائلاً: السيدة رحاب أليس كذلك؟

قالت: أجل..

قال: تفضلي، وأفسح لها مجالاً للدخول..

كان مكتبه لا يقل اتساعاً عن قاعة الانتظار، أنيقاً من اللونين البيض والأخضر، وقد فرشت الأرض بموكيت أخضر طويل الريش يبدو كعشب. قرأ سؤال الدهشة في عينيها: من أين خرج المريض الذي كان في الداخل؟ قال لها باسماً محاولاً بث شيء من المرح في نفسها: باب الدخول غير باب الخروج، اضطررت لهذه الوسيلة لأن الناس هنا يحسون بحرج إذا تواجهوا، وعرف كل منهم أن الآخر يقصد عيادة طبيب للأمراض النفسية.

قالت له: أجل معك حق..

غمرها شعور بالارتياح وهي تجلس في حضرة رجل أحست أن له مفعولاً آسراً، وأعطاها الأخضر المنتشر إحساساً بالاستقرار، أخذت نفساً عميقاً وهي تشعر أنها ستبوح له بكل شيء، كل شيء قال: آسف سيدة رحاب، لقد اضطررت أن يكون موعدك متأخراً، في الواقع ضغط العمل عندي كثير هذه الأيام، وابتسم متابعاً: إن ضغوط العصر تتفاقم، وما عاد تحملها بالأمر السهل، وافقته دون أن تستوعب كلامه لأنها كانت منشغلة في تحضير لمقدمة حديثها...

قال: حسناً، سيدة رحاب، ثمة أسئلة تقليدية في البداية عن العمر، المهنة..

قاطعته: عفواً، دكتور، لست أنا المريضة، بل زوجي.

نظر إليها مستطلعاً إنما ليس مندهشاً، قالت: أتيت استشيرك بحالة زوجي، إنه هو المجنون أقصد المريض، أما أنا فالحمد لله لم أفقد عقلي بعد..

سألها الطبيب: ولم لم تحضريه معك؟

تصنعت الابتسام قائلة: لأنه يرفض، يعتقد بأنه عاقل، بل الأدهى من ذلك يعتقد بأنه توصل إلى حكمة الحياة.

-لكن في هذه الحالة سيكون من الصعب علاجه، يجب أن ألتقيه...

قالت: آمل ذلك، بمساعدتك طبعاً.

أخذت نفساً عميقاً قائلة: في الحقيقة لا أعرف من أين أبدأ؟ وفجأة اختنق صوتها وهي تخضع لانفعال خضّها فجأة مفجراً دموعاً حارقة من عينيها، ربما لأنها أحست بهشاشتها تجاه رجل تتدفق الثقة من ملامحه، لكنها أحست أنه من الطبيعي ، بل قد يكون من واجبها أن تبكي في حضرة طبيب نفساني...

قال لها وهو يقدم منديلاً ورقياً لتمسح دموعها فيما موسيقى هادئة لموزارت تغمر المكان فجأة تحسها قادمة من الفضاء لأنها عجزت عن تحديد مصدرها...

سيدة رحاب ثقي أن كل المشاكل لها حلول، وكما يقال نصف العلاج يكمن في البوح بالمشكلة فأرجوك اهدئي وتحدثي إلي بثقة...

مسحت دموعها، أحست برضى كونها ابتدأت بدفقة الدموع، وهكذا سيشعر الطبيب صدق معاناتها، وقد يصدقها أكثر.

قالت: أليس غريباً أن يبدأ الجنون عند رجل، وهو على أعتاب الخمسين؟ لا تتصور كم يحزنني ذلك يا دكتور، منذ أكثر من سنتين غدت تصرفاته غريبة للغاية، كأنها صادرة عن شخص آخر شخص لا علاقة له إطلاقاً بما كانه.

–هل يمكنك أن تقولي لي للحال ودون تفكير بعض تصرفاته مثلاً..

أذعنت للأمر وقالت: تصور البارحة لمحت صرصاراً كبيراً خلف ستارة الصالون، وأنا أشمئز من الصراصير، وأخشى قتلها، أقصد أفضل أن يهرسها غيري، قلت له: انظر إلى هذا الصرصار هيا اقتله، فابتسم قائلاً: لا، لن أقتله، دعيه يعيش مستقبله! هو الذي كان يسحق الفراشات في كفيه ليبين لرفاقه براعته في اصطياد الفراشات.

ابتسم الطبيب وقال بدعابة: ألم يُقتل الصرصار بعد؟

قالت: لا، تصور ماذا فعل، لقد رفعه على قطعة ورق برفق شديد ورماه خارجاً.

-حسناً، سيدة رحاب، سأسألك عن عمله وعاداته، وإن كان يشكو من أمراض عضوية.

أشعل الطبيب سيجارة، وقدم لها سيجارة تناولتها شاكرة قائلة باستغراب: لكنك تمنع التدخين مشيرة إلى غرفة الانتظار.

قال: في الخارج، غرفة انتظار للجميع، لا يحق للمدخن أن يسيء لغير المدخنين، أما هنا فالمكان والوقت ملك للمريض فإذا كان مدخناً فليدخن.

سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها وقالت: زوجي اسمه مروان عبد الجبار، أشهر تاجر زجاج وقد جمع ثروات كبيرة من تجارة الزجاج، وهو جامعي حاصل على شهادة جامعية في التجارة والاقتصاد، وقد تزوجنا بعد قصة حب، منذ ربع قرن تقريباً، كان شاباً جميلاً، قوياً، مغرماً بالصيد، وأكثر ما أحببت فيه قوته، كان لا يخشى شيئاً، ولكم اصطدمنا في بداية زواجنا بسبب هوايته في صيد الخنازير، تصور يا دكتور الرجل الذي كان يقتل الخنزير ويسلخه ويقطّعه ثم ينام بعمق، لا يقتل الآن صرصاراً، بل يتركه ليعيش مستقبله!

-حسناً سيدة رحاب، هل عشتما سعيدين ومتفاهمين؟

–أجل يا دكتور، كانت حياتنا نموذجية، رزقنا ثلاثة صبيان، كلهم ناجحون، والحمد لله، لم يتسببوا لنا بمشاكل إطلاقاً، لم نشك من أية صعوبات مادية. على العكس، لا نزال نعيش في بحبوحة يحسدنا عليها الأقرباء والأصدقاء إلى أن تحولت حياتنا إلى جحيم مذ أصابه الجنون أقصد المرض.

–منذ متى لاحظت أن طباعه تتبدل، أرجوك أن تحددي الزمن بدقة.

قد لا أستطيع تحديد الزمن بدقة، لكني أعتقد أنه منذ صدور الحكم النهائي للدعوى بينه وبين ابن عمه، رغم أن الحكم كان لصالحه بالنتيجة.

–وما موضوع الدعوى؟

–آه، إنها قصة قديمة، كان زوجي قد ورث عن والديه بناء قديماً ومتصدعاً من طابقين، الطابق الأول عبارة عن ثلاثة مخازن، يحتل أحدها ابن عمه، وحين أراد زوجي هدم البناء المتصدع وتشييد بناء حديث من ستة طوابق، رفض ابن عمه أن يخلي الدكان، واضطر زوجي للجوء إلى القضاء، تسع سنوات يا دكتور استمرت الدعوى، إلى أن صدر الحكم أخيراً بأن يخلي ابن عمه الدكان وبأن يهدم البناء، وبالفعل تم هدمه، وشيد بدلاً منه عمارة رائعة بتسعة طوابق..

سأل الطبيب: لقد ذكرت منذ برهة أن البناء من ستة طوابق.

ضحكت وهي تجيب: ومن لا يخالف يا دكتور؟ لقد دفعنا سلفاً ثمن المخالفات.

-وما علاقة الدعوى بمرض زوجك؟

-قد لا تكون هناك علاقة فعلية، وقد أكون أنا واهمة إذ ربطت بين مرضه والدعوى لكني لاحظت تغير شخصيته منذ صدور الحكم، آه، الله لا يكملّها مع أحد كما يقولون، فبدل أن نفرح وتتحسن حياتنا بعد أن ربحنا الدعوى، فقد ابتلينا بمرضه، تصور لقد انتابه حزن شديد حين صدر الحكم لصالحه.

-كيف انتابه الحزن؟ هل يمكنك أن توضحي أكثر؟

-أظنه أحس بالندم الشديد كونه ظلم ابن عمه، وندم على سنوات القطيعة والكره بينهما. لقد انتابه غمٌ فظيع لأيام بعد صدور الحكم، لم يفتح فمه بكلمة، كان يجلس طوال الليل محملقاً في الفراغ أمامه، لا يرد على كلامنا، كأنه لا يسمعنا ولا يرانا، وقد عرفت من المقربين أنه قد زار ابن عمه ورجاه أن يسامحه..

قاطعها الطبيب يسأل: وهل عوضه عن الدكان؟

-في الحقيقة أراد أن يعطيه أكبر دكان في البناء الجديد، ولكن من حسن الحظ لم يستطع، لأنه كتب البناء

منذ سنوات باسم أولاده، وجن جنون أولادي بسبب تهور والدهم ورفضوا أن يذعنوا لرغبته بإعطاء ابن عم أبيهم أكبر دكان في البناء الجديد.

–وماذا كان موقفه من أولاده؟

–لقد نظر إليهم بشفقة واحتقار، وقال إنهم مساكين، وعميان لأنهم لا يبصرون نور الحق.

آه يا دكتور حتى مفردات لغته تغيرت بعد أن مرض، صار يتكلم كثيراً عن الحق، والعدل والقيم الروحية، يا إلهي كم تبدل، كان لا يحكي سابقاً إلا بلغة الأرقام، وكان يضحك وهو يحكي لي كم ربح بمجرد لعبة بسيطة مارسها على زبون.

–ألا يزال يتابع عمله كتاجر زجاج؟

–لا إطلاقاً، لقد أهمل المحل، إنه يقضي وقته متأملاً أو يقرأ كتباً روحية، أظنها زادت جنونه.

–ألا تزال الخصومة قائمة بينه وبين ابن عمه؟

–لا، لقد عوضه بمبلغ كبير من المال، يشتري للأخير دكاكين وليس دكاناً واحداً، عرفت ذلك من المقربين والأهل، فهو لا يحدثنا إطلاقاً بما يعمل، حتى أن أحد الأقرباء شاهدة يبكي في أحضان ابن عمه، بالله عليك يا دكتور، رجل عاقل يتصرف بهذه الطريقة؟

–من الواضح أنه ندم وأحس أنه ظالم.

-أحس أنه ظالم! لماذا لم ينتابه هذا الشعور طوال سنوات الخصومة مع ابن عمه؟ أليس غريباً أنه بعد أن ربح الحكم أحس أنه ظالم؟!

-حسناً سيدة رحاب. ما هي تصرفاته الغريبة التي لاحظتها أيضاً منذ عامين؟.

-ألا يكفي أنه أهمل تجارته، بل تركها تماماً، ثم أخذ ينفق بلا حساب على الفقراء، مبدداً ثروته شمالاً ويميناً، من حسن الحظ أن أولادي تمكنوا من أن يستولوا على القسم الأكبر من أملاكه وأمواله، لكن ما يحرقني أكثر نوبات البكاء التي تنتابه، صدقني أحس وقتها بقرف، اعذرني على هذه الكلمة يا دكتور، لكنها الحقيقة، أشمئز من منظر رجل عرفته قوياً وجباراً صار يبكي كطفل.

-ألم تحاولي التحدث إليه؟

-أجل حاولت مراراً، لكنني لم أجن سوى المرارة والخيبة، لم أعد موجودة بالنسبة إليه يا دكتور، أتكلم إليه فيما هو ينظر إلي نظرات شاردة تتجاوزني، كأنه لا يراني، ويقول لي مسكينة يا رحاب، أنت تضيعين الجوهر. عن أي جوهر يتحدث لا أعرف؟

-وكيف يقضي أوقاته؟

-إنه يغرق بتأملات طويلة، وأحياناً يكتب، وهو حريص على أوراقه يخفيها في درجه ويقفل عليها أكثر مما

كان حريصاً على أمواله، ذات يوم داهمته يكتب فأجفل وأخفى أوراقه، لكني غافلته مرة وتمكنت من فتح درجه الخاص بعد أن سرقت المفتاح وقرأت أوراقه، يا للطلاسم، لم أفهم شيئاً، لغة مجانين.

-هل تذكرين بعض عباراته؟

-لا، واستدركت أجل أذكر بعضها، تصور أنه يبتدع تعابير مثل تجميع الذات، لقد قرأت صفحة لم أفهم منها شيئاً أنه سيجمّع ذاته، وأنه يجب أن يوجد حيث هو، وأنه يجب أن يمتد إلى المستقبل، وبأنه يعاني من نتائج سقوطه المأساوية. يا إلهي يا دكتور، لو أتمكن من إحضار تلك الأوراق إليك..

-أتمنى فعلاً أن أقرأ ما يكتبه فهو مثير للاهتمام كما يبدو...

-لكن أي تجميع للذات هذا يا دكتور... هل يتحدث هكذا عاقل..

ابتسم الطبيب قائلاً: ثمة قاعدة يجب أن تعرفيها يا سيدة رحاب، لا يمكن القول عن شخص بأنه مجنون أو مضطرب نفسياً ما لم يخضع لاختبارات في الطب النفسي، كما لا يمكن أن نقول عن شخص إنه عاقل، ما لم يخضع بدوره لهذه الاختبارات.

-ماذا تقصد؟

أحست بذعر لكأن الأرض تتخلخل تحت قدميها، إنما لم تتمكن من تحديد ذعرها بوضوح.

تابع الطبيب: الكلام شديد الوضوح كثيرون حولنا، يعتقدون، ويعتقد ذووهم أنهم أسوياء في حين أنهم غير أسوياء على الإطلاق، إن العصاب يأخذ أشكالاً متنوعة وقاسية في زمننا، بالمقابل هناك أشخاص منسجمون مع ذاتهم، يفكرون بوضوح وصدق وبشكل سليم لكنهم يعتبرون شاذين أو مجانين، كما ينظر إليهم الآخرون، أعرف شاباً ينظر إليه الناس على أنه مجنون لمجرد أنه يمارس هواية اليوغا في الهواء الطلق، ويضع حلقاً ذهبياً في أرنبة أنفه ويسدل شعره على جبهته أو يضفره في ضفيرة، لقد درس في الهند، وتأثر هناك بالبوذية واعتنقها، وأصرّ على أن يعيش قناعاته هنا فكانت النتيجة أنه صُنف مجنوناً، فماذا تحكمين على هذا الشاب يا سيدة رحاب؟

أحست رحاب بالارتباك، ووجدت نفسها تجيب دون أن تبذل جهداً للتفكير: لا أعرف المهم العقل..

ضحك الطبيب قائلاً: جملة هامة. المهم العقل حسناً، فهل بإمكانك تعريف العقل؟

اشتد ارتباكها وقالت: وهل العقل يحتاج لتعريف، إنه عكس الجنون..

ابتسم الطبيب وقال: إذاً علينا أن نتفق حول تحديد مفهوم العقل ومفهوم الجنون..

قالت وهي تحس بضيق: أرجوك يا دكتور أنا لست طبيبة نفسانية، كل ما أرجوه أن تساعدني في علاج زوجي.

قال الطبيب: ما فهمته حتى الآن أنه تاجر ناجح ثري، له ممارساته المعينة في الربح غير المشروع، وكان طماعاً وشرساً وظالماً، ثم تغيرت وجهة نظره للحياة، أعاد تقويم ذاته وحاول ترميم ما يمكن ترميمه...

قاطعته بذهول: ترميم ما يمكن ترميمه، لكنه أهمل تجارته، وبدد أمواله، صار الكثير من المحتالين يتظاهرون أمامه بالفقر ليسحبوا أمواله وهو يصدقهم ويعطي، ويعطي بسخاء وبدون تفكير... ولم يعد يبالي بأولاده، صار يتهمهم بالضلال والطمع، ويبكي ألماً على وضعهم، يسميهم المضللين، وأنا...

–وأنت ماذا؟

غضت نظرها وقالت: في الواقع يجب أن أصارحك بكل شيء، فأنت طبيب، وأردفت، نفساني لم يعد يقربني أبداً، منذ حمى الدموع الروحية التي انتابته بعد صدور حكم الدعوى وتغيرات طباعه، ما عاد يشتهي أن يقترب مني، أكاد أصاب بالذهول، لا أكاد أصدق أن هذا الرجل الذي أحبني وكان لا يطيق الابتعاد عني، صار ينفر مني وينظر إلي تلك النظرة الباردة الأقرب للشفقة.

–ألم تناقشي هذه المسألة معه؟

-أجل، لقد اضطررت لمناقشته في مواضيع حرجة، لا تتمنى امرأة أن تبادر بمناقشتها مع زوجها.

-وماذا قال؟

-قال بعد أن أجبرته أن يقول شيئاً: صحيح أن المسافة بيني وبينك شبر، لكن المسافة بين روحينا أميال.

-ألم يقل شيئاً آخر؟

- لا أبداً.

ابتسم الطبيب وتفرس في وجه السيدة رحاب وسألها بلهجة مرحة: لو كانت علاقتكما الجنسية كزوجين مستمرة، هل كنت تعتبرينه مجنوناً؟

تضرج وجه السيدة رحاب وقالت: أرجوك يا دكتور، لا تسيء الظن بي..

-إطلاقاً يا سيدة رحاب، هذه أمور بسيطة للغاية، لكني حتى الآن لم أجد سبباً مقنعاً لإدخال زوجك خانة المجانين.

قالت بحماسة حارة: كيف يا دكتور، لقد أهمل عمله، ونسي أسرته، وبدد أمواله، ونسي أصدقاءه، أتعرف من يعاشر هذه الأيام، المتسولين، إنه يجلس معهم على قارعة الطريق وأحياناً يراه الناس يذرف الدموع وسطهم، فهل هذا تصرف رجل عاقل.

لم يجب الطبيب، فألحت السيدة رحاب في السؤال قائلة:

-أرجوك قل لي، أهذا تصرف رجل عاقل؟!

-لنبتعد عن التسميات يا سيدة رحاب، أنا أفضل أن ألتقي زوجك، إنما عليك أن تعرفي أن تغير رؤية الإنسان للحياة بشكل عام ولحياته بشكل خاص يقتضي تغيراً في سلوكه وشخصيته، واضح أن زوجك أصبح يزدري المال، بل ندم على ممارساته القديمة..

قاطعته السيدة رحاب: وهل هذا طبيعي يا دكتور؟

قالتها بحرقة وقهر شديدين..

قال الطبيب باسماً محاولاً امتصاص انفعالها: في الواقع أفضل أن ألتقيه.

-وكيف علي إقناعه بزيارتك يا دكتور؟

-لا أظن الأمر مستحيل، سنتوصل لحجة ما، لوسيلة ما.

-لكني يئست تماماً من إمكانية عودته إلى ما كان عليه، بصراحة لقد تعبت كثيراً، صرت قلقة، سريعة التأثر، وعصبية، بل أحياناً تنتابني نوبة ذعر مفاجئة، أحس كأن القدر أحكم قبضته علي...

قاطعها الطبيب: في هذه الحالة أنت بحاجة لمساعدتي أيضاً يا سيدة رحاب.

نظرت إليه السيدة رحاب باستسلام وقالت: أجل..

-حسناً سيدة رحاب، سأكتب لك دواء مضاداً للقلق، أنصحك بالاسترخاء والتأمل والابتعاد عن الضجيج، لا بأس في أن تقضي فترة هدوء تغوصين فيها في أعماقك...

تناولت السيدة رحاب الوصفة الطبية وهي تحس بانكسار، ودعها الطبيب حتى الباب الخارجي للعيادة، لكنها قبل أن تغادر التفتت لتتأمل صورة الشاب المسترخي على العشب مستمتعاً بدفء أشعة الشمس، للحظات أحسته زوجها، بل شعرت كأن هناك تواطؤاً بين الطبيب وزوجها والصورة... لكنها تابعت خطواتها متعثرة بأفكار غريبة تزيدها تشوشاً وتوتراً.

جـــانحــة

حولتها الشرطة الجنائية إلى قسم مكافحة الفتيات الجانحات، لافتة كبيرة مكتوبة بالأحمر تعطي الإحساس بالفضيحة.

قدروا أن عمرها خمسة عشر عاماً، فهي لا تحمل هوية، كُتب في أوراقها وهي تدخل بناء مكافحة الفتيات الجانحات: مشرّدة، ضُبطت بجرم السرقة من بقالية، سلّمها صاحب الدكان إلى الشرطة، لم تنكر حادثة السرقة، ردّت على المحقق بجملة دامعة: لا أستطيع تحمل الجوع، أريد أن آكل.

وحده الجوع كان حيوياً في وجودها، هو ملهمها للنبش في القمامة، والتسول والسرقة ولمساومات مختلفة كانت تجهل كنهها حتى وقت قريب.

اسمها عذاب حمدو، اسم على مسمى كما قال الشرطي ضاحكاً وهو يسلمها للمسؤولة في قسم رعاية الجانحات، من باب الفضول كنت أزور هذا القسم، وحدها اللافتة الكبيرة الصارخة بالأحمر، شدّتني، المشرفة كانت

شرطية فُرزت للاهتمام بالجانحات، قالت لي إنها تسلّمت عملها منذ شهرين، وإنها تسعى للانتقال إلى مكان آخر، لأنها تحس بكآبة خانقة. أطلت عذاب حمدو من الباب وقالت للمشرفة: ضرسي يؤلمني...

صرخت المشرفة: كفى، ما عدت احتملك، كل يوم يؤلمك شيء، مرة بطنك، ومرة رأسك أجرجرك من طبيب إلى طبيب...

جمدني تعبير وجه الشابة، في وجهها شيء صارخ غير عادي، لكأن الحياة نقشت على وجهها النضر حقداً دفيناً، أخذ يلوح من مسامها ليغمر المكان، في عينيها نظرة قلق ويأس، ولمعان زائغ يوحي بالجنون. واضح أنها ترزح تحت وطأة ضغط وكبت شديدين، رغم أنها نطقت بجملة واحدة: ضرسي يؤلمني، فإن الحزن العميق كان يتستر خلف كلماتها. تفرست في الوجه النضر الذي ترسم خطوطه همّ صاحبته القاسي، لا أعرف لماذا رغبت بالاختلاء بتلك الصبية، أحسستُ أنني معنية بأمرها، كلنا معنيون، طلبت من المشرفة أن تسمح لي بالاختلاء معها، قالت وهي تتنهد: يا ليت على الأقل أرتاح قليلاً من شكاويها المستمرة.

قدّرتُ أنها جائعة، ترددت! هل أطلب طعاماً أم أعطيها نقوداً، رجحت الفكرة الثانية، وجدتني أنقدها بلا تردد خمسمئة ليرة، خطفتها للحال، وركعت لتقبل قدمي،

انتفضتُ واقفة وأنا أمسكها بحنان من كتفيها وأقول لها إياك أن تركعي لأحد يا عذاب، تعالي اجلسي إلى جانبي أريد أن أحدثك.

دست ورقة النقود في جيب بنطالها الأسود الخلفية. واضح أن البنطال لم يُشترَ لها لأنها اضطرت أن تحزم خصرها بحزام عريض أبيض مشقق كي تحكم لصقه بجسمها، كانت تلبس سترة حمراء ضيقة تكشف عن عنق أبيض فتي، لم أمنع نفسي من إطراء جمالها، وجهها المستدير النضر، وبياضها الوردي عيناها القلقتان الواسعتان، وفمها الممتلئ الذي يفتر عن ابتسامة قادرة على رسمها في قسم مكافحة الفتيات الجانحات.

أخذت تفقد تحفظها أمامي، شيئاً فشيئاً، بزفرات طويلة متلاحقة تعبر عن ضيقها.

سألتها: منذ متى أنت هنا يا عذاب؟

قالت بآلية: منذ خمسة شهور.

سألت: أين كنت من قبل؟

ردت بالآلية ذاتها: في الشارع.

قالتها بسخرية باردة: كأنها تريد أن تصفعني بها، وتصفع المجتمع بأكمله، لم أستطع إخفاء دهشتي قلت لها: في الشارع؟ أتنامين في الشارع؟

قالت ببساطة: لا، بل أنام في المغاور.

سألت: أية مغاور؟ من أين أنت؟

-من منطقة القساطل.

-أليس لك أهل؟

-أجل.

كانت ترد على أسئلتي ببساطة شديدة، كأن واقعها لا يثير أية غرابة.

-أين والداك؟

-أبي في السجن.

-لماذا؟

أسرعت بالرد: كان يهرّب مخدرات.

-من قال هذا الكلام؟

ضحكت قائلة: الكل، راسمة بيديها دائرة أغلقتها بإحكام عليها.

-وأمك؟

-أمي تزوجت.

-لماذا لا تعيشين معها؟

-زوجها لا يرضى.

-وهي، أتعرف كيف تعيشين؟

-أجل.

-وكيف ترضى؟

هزت كتفيها بلا مبالاة، وكررت بآلية: زوجها لا يرضى.

-أليس لك أقارب؟

-أجل أعمام وأخوال.

-لماذا لا تعيشين عند أحدٍ منهم؟

-لا يرضون.

كانت تحمل على كاهلها لعنة العصر، أحسستُ من الآلية المطلقة التي تجيب بها، أنها لا تعرف صفات إنسانية أساسية، كالحب، والحنان والتعاطف والرقة... أخبرتني أنها تعيش في المغاور مذ كانت في السابعة من عمرها، وأنها قبل هذه السن كانت تعيش مع أب وأم دائمي الشجار، كان والدها يضربها وأخوتها ضرباً مبرحاً، حين ترجع خاوية اليدين من التسول، ومراراً كان يرميها لتنام في العراء، غير آبه بالبرد والذئاب البشرية.

سألتها: كم أخ لديك؟

قالت: ثلاثة صبيان، وبنت.

-هل أنت الكبرى؟

-أجل.

-أين البقية؟

رفعت كتفيها باستخفاف وقالت: لا أعرف.

حّل بيننا صمت متوتر، كانت ترمقني بعينيها الزائغتين اللتين يلوح فيهما الانهيار والجنون والجهل، إنها تجهل تشخيص حالتها، تفتقت في ذهني جملة عفوية: أتراها إنسانة واقعية حقاً؟! أهي نتاج عصرٍ وحضارة!! أتنام حقاً في المغاور وتأكل من القمامة؟!

تدّفق دفء غزير من روحي تجاهها، وأنا ألاحظ خشونة يديها وتقصف أظافرها.

سألتها برقة: ماذا أخذت من دكان البقال؟

قالت: ألواح شوكولا، لا تتصورين كم أحبها.

–أبسببها سلمك للشرطة؟

–أجل، ضربني وسلمني.

–أحقاً ضربك؟

أشارت بيديها: نعم، على رأسي، وعلى ظهري، ركلني أيضاً في خاصرتي.

كيف تتكلم تلك الطفلة بهذه البساطة المعذبة، في صوتها رنة تحرقني وتشعرني بالذنب.

أمسكت يدها، وكأنني أريد التأكيد أنها كائن بشري حقيقي أمامي، وليست خيالاً فاراً من كابوس.

سألتها: هل حقاً رفضك كل أقربائك؟

أطرقت، لم تجب، لمعت نظرة حقد مخيفة في عينيها جعلت قلبي يرتعش، قالت وقد تصلب صوتها هذه المرة: أجل.

سألتها برقة مبالغ بها كي أساعدها على الاسترخاء: عذاب، أحسك تخبئين سراً عني، احكي لي كل شيء عن نفسك اعتبريني أختك...

قاطعتني ضاحكة: سوسن.

سألتها: من سوسن؟

-أختي، هل تريدين أن أعتبرك مثلها؟

ألا تعرفين شيئاً عنها؟

-لا، عاشت معي في المغاور، مدة، ثم ضاعت.

-ألا تعرفين تقدير تلك المدة؟

هزت رأسها بالنفي.

تذكرت، قالت: كانت تسعل دوماً، أحياناً كنت أضربها لأن سعالها يمنعني من النوم.

كم بدا سؤالي تافهاً وأنا أسأل مشردة مرمية في مغارة عن أحاسيس التعاطف الإنساني.

-أما كنت تخشين الذئاب والحيوانات المفترسة يا عذاب؟

رمقتني بنظرة غائمة، كأنها تستحضر ذكريات بعيدة وقالت: أحياناً.

-أكنت تشحذين الطعام من البيوت؟

-نعم.

-أكان الناس يلبون طلباتك؟

-أحياناً.

أحسست من كلامها، أنها لا تعرف الكثير من المفردات اللغوية، تفتقر للغة كما تفتقر لكل شيء، حاولت أن أحرض في نفسها شيئاً من الرقة لكني عجزت. سألتها بروح الدعابة: ألا تذكرين إنساناً أو إنسانة عاملاك بكرم ورقة.

الكرم فهمته، أما الرقة فكلمة تستعصي على عقلها الذي لا يختزن لمسة حنان. انتصبت واقفة كأنها تذكرت أهم حادثة في حياتها، قالت:

- ذات يوم كنت انكش في القمامة بحثاً عن بقايا طعام، فاجأني شاب يحمل صرة، فتحها أمامي، كانت تلك أعظم مفاجأة لي، تصوري فروج كامل -أخذت شهيقاً عميقاً وتابعت- رائحته دوختني، فروج مشوي مع سلطة خيار وبندورة، يا سلام، في حياتي لم أتذوق أطيب منه.

سألتها وأنا أتوجس من جوابها: هل أعطاك الفروج دون مقابل؟

ضحكت، تساءلت ماذا أعني، يبدو أنها لم تفهم معنى مقابل.

-أقصد ألم يطلب منك شيئاً؟

فرّت شرارة ألم سريعة من عينيها، قالت: عجباً، كأنك كنت معنا.

-عذاب، أرجوك صارحيني، ماذا حدث بينك وبين الشاب؟

ردت ببساطة: لا شيء طلب إلي فقط أن نصعد ظهر شاحنة.

-ظهر شاحنة؟

-أجل.

-وماذا فعل؟

-لا شيء، لا أتذكر تماماً، سوى أنه أرخى جثته فوقي.

هوى قلبي وتابعت أسئلتي: وأنت ماذا فعلت؟.

-لا شيء.

-ألم تقاوميه.

-لا.

-ألم تتألمي وتخافي؟

-لا، بل فاجأني؟

-لماذا لم تقاوميه؟

ردت ساخطة: ولماذا أقاومه وقد أحضر لي فروجاً!

-أمن أجل الفروج سمحت له أن يغتصبك؟

قالت مؤكدة: أجل، الجوع صعب، صعب.

كان لحرف الباء، بالطريقة التي تلفظه بها، مفعول إقفال كل إمكانية تواصل ولقاء بيننا.

أطرقت بخجل أمام الطفلة المسكينة، التي يعلق عليها الناس آمالهم. سألتها بعد تردد:

-هل تكرر معك ما حدث..

قاطعتني بألم صريح: تقصدين الرجال.

-أجل.

ردت ببساطة: نعم، تكرر.

سألتها: كيف؟

قالت: ذات مرة دخلت أشحذ من مكتب، كان رجل وحده، طلب إلي أن أجلس، أغلق الباب، أدخلني حماماً صغيراً طلب إلي أن أغتسل، فرحت في البداية، كنت أحتاج لتنظيف جسدي، ثم تصرف معي، ضحكت، ولم تكمل.

-ألا تعرفين أن هذا الفعل يسمى اغتصاباً؟

-لا، لم أسمع بهذه الكلمة من قبل.

دخلت المشرفة تحمل فنجان قهوة، فرّت عذاب وهي تغمزني، قالت للمشرفة: السيدة أعطتني مالاً هل يمكنني شراء بعض الأغراض من عند البقال.

قالت بجفاء: أجل، إنما لا تتأخري.

سألت المشرفة: كيف تعيش عذاب هنا؟

تنهدت قائلة: من التبرعات، ننتظر أن يتحنن عليها أحد أقربائها ويأخذها لتعيش عنده، تصوري، ذهبت بنفسي لمقابلة أمها، بعد أن أضنانا البحث عن عنوانها، رفضت استقبال ابنتها، قالت أنها غير مستعدة أن ترمى في الشارع مع أولادها بسبب عذاب.

-شيء غريب، الحيوانات تحنّ على أولادها!

رشفت القهوة بصوتٍ عالٍ، قالت: ألا تعرفين أحداً ما يبحث عن خادمة؟

وجدتني أسأل: ألم تفكري بتعليمها القراءة والكتابة؟

ضحكت: القراءة والكتابة؟ لماذا، هل ستسد جوعها! المشكلة مع عذاب أنها عدوانية، شرسة، لا يغرّك شكلها، مقصوفة العمر جميلة، اقتربت مني وهمست قائلة: لا تؤاخذينني أظن أنها مشروع (...)

انتفضت مجفلة من هذه الجملة، كأن أحداً لكزني بقوة مابين كتفي، وجدتني أقول باحتداد: يجب أن نسعى لتكون هذه الفتاة مشروع إنسانة، كلنا يجب أن نساعدها لتصير

إنسانة تحس بكرامتها، لا أن تُرمى بين الجدران كغرض ينتظر من يستعمله.

قاطعتني المشرفة بدهشة وهي تستغرب انفعالي: ألا يكفي أننا آويناها، نطعمها ونلبسها بعد أن كانت مشردة كالكلاب.

لم أستطع أن أرد بكلمة، كانت صورة عذاب تحاصرني وهي تنام في المغاور، وهي تنكش في القمامة، وهي تقايض جسدها بفروج، وهي تنام في العراء مطرودة من بيت والديها، صور كثيفة كأنني شاهدة حقيقية عليها، حاصرتني ولحقتني وأنا أخرج من مبنى مركز مكافحة الفتيات الجانحات، لأقف مسمُرة أمام اللافتة العريضة الضاجة بالأحمر، وهي تؤكد إحساسي بالخجل.

التســوق الأخــير

رؤوسُ العجولِ المقطوعةُ والمسلوخةُ، بدتْ متماثلةً ومتطابقة، لكأنها صورةُ رأسٍ واحدٍ تتكررُ إلى ما لا نهايةَ في مرآتين متقابلتين، مصفوفةً ومتلاصقةً فوق لوحٍ خشبيٍ، تحت الرؤوسِ قصعةُ كبيرةٌ تحتوي الأكبادَ والأمعاءَ، على الأرضِ قصعاتٌ تحتوي الأقدام...

لم يستطعْ أن يمنعَ نفسهُ من الانقباضِ وهو يتأملُ المنظرَ الوحشي كما سمّاه، وكي يستفزهُ خيالهُ صوّرَ له صورةَ عجولٍ رشيقةٍ ترعى في مرعىً نظيفٍ شديدِ الخضرةِ مُعمدٍ بالشمس. تابع خطواتهِ بحذرٍ في "سوق الخضار" متجاوزاً أكوامَ قمامةٍ متعَفنةٍ، غزتْ رئتيه بسمومِ بخارها، الدكاكينُ التاليةُ، كانت دكاكينَ دَجاجٍ، وقد فُرزت الأفخاذُ في أوعيةٍ، والصدورُ في أوعيةٍ مجاورةٍ، توقفَ ليتأملَ صبياً لا يتجاوزُ العاشرةَ من عمرهِ يقطعُ دجاجةً بواسطةِ آلةٍ كهربائيةٍ لها شكلُ دولابٍ مَعْدني حادٍ، وغير بعيدٍ عنه، كانت الدجاجاتُ تغادرُ سجنها لتذبحَ ثم تلقى في برميلٍ وسخٍ يدور مُصدراً قرقعةً هائلةً، ثم يتوقفُ لتخرجَ منه الدجاجةُ عاريةً جاهزةً للتقطيع..

تأملَ الصبيَ الذي تعملُ يداهُ بمهارةٍ على آلةِ التقطيع الجهنميةِ، كيف تقصُ العظامَ بالسهولةِ التي يقصُ بها أظافرَه رامياً الصدور والأفخاذَ في أوعيتها بمهارةٍ متعودٍ وغير مبالٍ، حدّث نفسه: هكذا يتعلمُ الإنسانْ القسوةَ.

حاذر في خُطُواتِه أن يصطدمَ بالبضائعِ التي تعرضُها الأعرابياتُ، وهكذا كان الناسُ يسمونهن، كن يقرفصْنَ بثيابهن الطويلة ومناديلِ رؤوسهن المزركشةِ قربَ قدورٍ من اللبنِ والجبنِ والزبدةِ ويعرضنَ بضائعهنَ على المارةِ، دون أن يبذلن أيَ جُهدٍ لإبعادِ الذبابِ المتراكمِ فوقَ القدورِ، وكنَ يصطحبنَ أطفالهنَ معهن، يتركنَهم طَوالَ اليومِ على الرصيفِ دائخينَ من التفرجِ على مظاهرِ النتانةِ والقبحِ اللذين يفسدان كلَّ طاقةِ خيالٍ عندهم، استوقفه وجهُ طفلٍ صغير لا يتجاوز السنةَ، يغفو في حضنِ أمهِ المقرفصةِ بجوارِ وعائها الكبيرِ المملوءِ بالجبنِ البلدي، ورغم مهرجانِ الضجيجِ والنتانةِ والذبابِ والحرِ إلا أن وجهَ الصغيرِ كان يعكسُ اطمئناناً مُلفتاً، وهناءةً لا حدودَ لها، وكان حضنُ تلك الأم المتخمرةَ بعرقها وروائحِ بضائعها الحامضة هو حضن العالم بالنسبة للصغير، أحس بخشوع وهو يتأمل هذا الصغير الغافي ، تمنى لو يشتري كلَّ بضاعة أمه ويقولُ لها: اذهبي واعتني بالصغير بعيداً عن سوقِ القمامةِ والذبابِ هذا... لكنه كان يعرفُ أنه لن يقدرَ على شراءِ كل تلك الكمية الكبيرةِ من الجبنِ، ويعرف أنها لن ترجعَ إلى

البيتِ، بل ستبقى بانتظارِ زميلاتها، مجرجرةً معها الصغير كأنه لا يزال قطعةً من أحشائِها.

اخترقَ السوقَ أخيراً قاصداً اللبَّ أو القلبَ، حيث تتلاصقُ العرباتُ الخشبيةْ تعرضُ الخضارَ والفاكهةَ، وتتنافسْ أصواتُ البائعين في العلوِ، وفي تصنع لهجة إغواءِ الناسِ للشراءِ...

كانت زوجته -كعادتها قد أوصته أن يشتري كذا وكذا، لكنه تمرد هذه المرةَ راغباً بالتحرر من طلباتِها الشبيهة بالأوامر. سأل نفسَهُ: ماذا تريدَ أن تشتريَ يا سليمَ؟ رمقتْ عيناه عربةَ البامية بشوقٍ، ابتسم بكآبةٍ وهو يتذكرُ أنه لم يتذوقها منذ عشرين عاماً، وطفتْ صورةُ الطبيبِ في ذهنهِ يحذرهُ: ابتعدْ عن الطعامِ الذي يحوي الأليافَ، إنه مهيجُ للكولون، تنبّهَ له البائعَ كيف يرمقُ الباميةَ بحنانِ محرومٍ، فمدَ له كيساً أسودَ قائلاً: لا تتردد لن تتذوقَ أطيبَ منها، تناول الكيسَ وأخذَ يملأ قبضتهُ من الباميةِ مالئاً الكيس، ستغضب زوجته، سيتركُها تبرطمْ دون أن يعلْقَ بكلمة، ستتظاهرَ أنها غاضبةٌ لأنه يخلُ بصحتهِ، أما الحقيقةَ فهي تكره إعدادَ هذه الطبخةَ، عشرون عاماً وأمعاءهُ تُذّله، تُذيقه آلاماً تستمر أياماً وليالي، وتدخله في نوباتٍ مخجلةٍ من الإسهال المدمى، وكم من مرة تعرّضَ لتداخلات جراحية وأخيراً، والآن وهو على بعدِ خطواتٍ من التقاعدِ، أخبره طبيبُه أنه استنفد كلّ الفرصِ العلاجيةِ، وأن الحلّ الوحيدَ

المتبقي هو قطعُ كاملِ أمعائهِ الغليظةِ، وفتح فوهةَ جانبيةٍ في خاصرته لتخرجَ منها الفضلات.

عكس خيالهُ صورَ القدور المملوءةَ بأمعاءِ العجولِ، وجدَ نفسه يقولُ جملة انبثقتْ من ذهنه دون تفكير: مأساةُ البشريةِ دفع ثمنَ الباميةِ وهو يحسُ بنشوةٍ، تنهدَ مخاطباً نفسهُ برقةٍ جديدةٍ عليه، ذلك أنه قضى أغلبَ حياته متجهماً من الهمومِ الماديةِ والمرضِ: كم من السنواتِ لم تفرحْ روحُك يا سليم؟ وأجابَ شقيقُ روحِه: آهٍ منذ زمنٍ بعيد، بعيد.. لشدَ ما كان متواطئاً مع نفسهِ في تلكَ اللحظةِ، مكتشفاً وسطَ ازدحامِ سوقِ الخضارِ، أن صداقةَ الذاتِ هي الصداقةُ الوحيدةُ المتبقيةُ للإنسانِ، وأتاه الإلهامُ المؤكدُ أنه لن يُقدِمَ على هذه العمليةِ أبداً... ولأولِ مرةٍ استطاعَ أن يُواجهَ أسبابَ قلقهِ العميقِ، شديد الوطأةِ. إنه ليس الخوفَ من العمليةِ أبداً... بل الخوفُ من الذين يحبونهُ أو يدعونَ أنهم يحبونَهُ وتذكرَ جهاداً، ابنه البكرَ المهندسَ المبتدئ الذي يعاني ضغوطاً ماديةً كغيره من الشبانِ، والذي يطمحُ أو يطمعُ –لا فرقَ– في أن يعطيه والدُهُ ما ادخره طوالَ حياتهُ لأوقاتِ الحاجةِ، صحيحٌ أنه لم يدخرْ الشيء الكثيرَ، مجردُ مئتي ألف ليرة، كان يعرف أنها ستتبخرُ نفقاتِ للعمليةِ وما بعدها... الآن يستطيعُ أن يواجهَ الحقيقةَ وجهاً لوجه، يعرفُ لماذا تعكُرَ مزاجَ جهادٍ، وعصفَ به غضبٌ مكتومْ يومَ أحسَ أن مئتي ألفِ سوفَ تتبخرُ على أمعاءِ والدِهِ وليس على مشروعهِ المستقبلي... لكنه في حمّى

آلامه المبرحة كان يداري تلك الحقيقةَ، يموّهها، تساءلَ وهو يمشي في سوقِ الخضار محاذراً أن تزلَّ قدمهُ بسبب سخامِ القذارةِ الذي يَفْرشُ الأرضَ، لماذا أعيشُ أكثر!؟ أليس الموتُ –أحياناً– يصونُ كرامةَ الإنسانِ، أكثرَ مما تصونُها حياتهُ؟ وتذكرَ يومَ فاجأ زوجتَه وابنه جهاداً يتهامسان حولَ مرضهِ، وكيف بُهتا حينَ وقعَ نظرهما عليه، لا يزالُ يذكرُ ابتسامتهَ الودود البلهاءَ، والقلقَ المذعورِ في عيونهما، يومَها حاولتْ زوجَته إقناعه بأنهما قلقانِ بشأنِ صحتهِ، ومتخوفان من العمليةِ و... تلكأتْ ولم تعرفْ كيف ستكمِلُ حديثها.

كانت تخشى أن يكونَ قد سمعَ كاملَ حوارهما... لكنه فهم الآن بعد أن استعادَ نظراتهما في ذهنه، كلَّ ما قالاه، أمكنه أن يسمَعَ نظرةَ جهادٍ وليس أن يفهمها فقط، وتخيلَ وجه ابنه الوسيم المنظر يقول ساخطاً: إنه على بعدِ خُطواتٍ من التقاعد، كهلٌ ومريضٌ وميؤوسٌ من شفائهِ، وسيدفعُ مئتي الألفِ من أجلِ عمليةٍ غير مضمونةٍ، في حين أنني شابٌ أبني مستقبلي، وأحتاجُ هذا المبلغ لأشاركَ زميلي في مشروعٍ ناجح 100% مشروعِ صناعةِ الشموعِ التزينية، حاولي أن تُقنعيهِ يا أمي بالعدولِ عن العمليةِ، ثم... ثم أيّ ذلٍ أن يُفرِغَ فضلاتِ أمعائهِ من فتحةٍ في خاصرتهِ.؟

توقَفَ عند بائعِ البطيخِ، البطيخِ الأحمر المملوءِ بالألياف، وابتلع ريقَه وهو يستحلبُ طعمَه الحلوَ والمميزَ،

يحبهُ بارداً جداً. سيأكل الباميةَ أولاً ثم البطيخَ، ولتبدأْ آلامُ كولونِه بعدها. لا يهمُ، ستكونُ المسكناتُ التي صادقَها سنوات طويلةً بانتظارِه، تأبط بطيخةً كبيرةً، ومشى متسكعاً بين العربات، والضجيجُ والروائحُ حوله تُدْخلُهُ في حالةٍ تشبهُ الغيابَ، خرجَ أخيراً من الدوامةِ إلى الشارعِ لتطالعهُ لافتة جعلتْه ينفجرُ ضاحكاً: مشفى الأحذية، تصليحٌ، درزٌ، ترقيعُ كل أنواع الأحذية. راقت له هذه الجملة كثيراً حدّثَ نفسه: هذه هي الحداثة، وقد يكون مشفى الأحذيةِ أكثرَ رحمةً من مشفى البشر، على الأقلِ هنا يبذلَ الصانعُ خالص جهدهِ لإصلاحِ الحذاء، فهل يُبذل هذا الجهدُ لترميمِ بشري!! وعاد يتذكر حنقَ جهادِ في صرفِ مدخراتِ عمرهِ على صحته، أشفقَ عليه وحاولَ أن يجدَ له المبرراتِ، بالتأكيدِ إنه ضحيةُ زمن ماديّ لا يرحم، زمن يتمنى فيه الابنُ اعتصارَ أبيه واستخراجَ مضمونِ بطانةِ جيوبهِ، آهٍ لا بأس يا ابني الحبيب، سأعطيك مدخراتِ عمري الماديةَ القليلةَ، إنما ما يؤلمني كونُك لا تعرفُ كم أحبك، وكم... آهٍ كنتُ أتمنى لو ألمسَ محبتَك لي، لو تحتضنني يوماً وتقول لي: يا أبي لا تخشَ العمليةَ، لا تكتئبْ هكذا ساعاتٍ وأنتَ مطرقٌ تلاعبُ نفسكَ بالورقِ أو تقرأ بملل الجرائدِ اليومية، سأكونُ إلى جانبكَ دوماً يا أبي الحبيبَ وسأقدمُ لك راتبي الهزيلَ أيضاً لو احتجتَ، وجودُكَ بركةٌ يا أبي، موقف كهذا كان كفيلاً أن يسكّن آلامَه، أن يفارقَ الحياةَ وهو سعيدٌ... لكنّ جهاداً دائمُ

التهجمِ والغضبِ والسخطِ على الظروفِ، على الراتبِ، وعلى الحظِ..

حين همّ بعبورِ الشارعِ تذكر وجه الطبيبِ وهو يضعْ له خطةَ العلاجِ قبل العمليةِ، عندك فقرُ دم من النزفِ المتكررِ في الكولون. يجب أن نعالجهُ أولاً، كي تحتملَ التخديرَ والعملَ الجراحي، كما أنك مصابٌ بنقصِ ترويةٍ قلبية قديم، لذا يجب أن نحتاطَ ونستدعي طبيب قلبية يلازمُك طوالَ مدةِ العمليةِ، وأنصحكَ بعلاجِ أسنانِكَ المنخورةِ لأنها ستكون بؤرةً لإفراز الجراثيم...

طرد صورةَ الطبيبِ من ذهنهِ متأففاً، كفى ماذا سأصلحُ في هذا الجسدِ الذي اهترأ من التعب والمرض وتعاقبِ السنين، وقد تجرى كلُ هذه الإصلاحاتِ وتكون النتيجةُ غيرَ محمودة. لماذا عليه أن يعيشَ مجتراً آلامهُ الجسديةَ والنفسيةَ، إنه يرى نفسَه بعينِ خياله كيفَ سيكونُ عبئاً على الذين يدّعون أنهم يحبونه، بحثتْ عيناه بلهفةٍ عن الطفلِ الغافي في حضنِ أمهِ، أمكنه أن يميزهُ عن بعدِ لا يزالُ غافياً في حضنِ امرأة تنادي بصوتٍ جهوريّ على بضاعتها، وتمسحْ بكمها العرقَ المتصببَ من جبينها وعنقِها، دمَعَتْ عيناه وهو يقول للصغير: مسكينٌ يا صغيري، تُرى كيف ستتحمل قدرَك؟!

أخذ جبينَه يتصبب بعرق باردٍ وهو يتأبطَ البطيخةَ بيد، ويحمل كيسَ البامية باليد الأخرى، وجد نفسه يفكرُ بسلاسةٍ

لم يعرْفها منْ قَبلُ في حياتهِ، منطلقاً من فكرةِ موتهِ التي ستكونُ حلاً عادلاً ومثالياً للمجتمعِ، سيأخذ جهاد مئتي الألف، وينطلقُ بمشروعهِ في صناعةِ الشموعِ التزينية. سيمكنُه أن يحقق أرباحاً معقولةً تمكنُهُ من الاستقلال بمعيشتهِ عن أمه وأخيه الأصغر، أما تقاعدُه فسيؤول لزوجته وابنه الأصغر، وسيمكنهما أن يؤجرا غرفةً من البيت لطلاب الجامعة كما كانت زوجتَه تتمنى أن تفعلَ لتزيدَ الدخلَ، سينامُ الأصغَر في سريره بعد موتِه، وستؤجرُ زوجتُه غرفَة الأولادِ... وسيبكون بدموعٍ ينقصُها الصدقَ على أبٍ كان يمكنَه أن يعيشَ تراكماً زمنياً ذليلاً. لم يستطعْ أن يُخرجَ منديلاً من جيبهِ ليمسحَ عرقَه الذي أخذَ يسيلُ بشكلٍ خيوطٍ دقيقةٍ تتدلى من فروة رأسهِ مخترقةً حاجبيه، واصلةًً حتى ذقنه وعنقه، كان دوارٌ خفيفٌ قد أخذ يصيبه اعتقد أن سببهُ الازدحامُ والروائحُ المقززةُ للقمامةِ والخضارِ المتعفنةِ وأمعاءِ الحيواناتِ، لكنْ وخزةَ ألمٍ مفاجئةٍ أحسُها كالطعنةِ باغتَتْهُ في رئته اليسرى جعلته يترنح لحظات مقاوماً قدر استطاعته سقوطَ البطيخةِ وكيسَ البامية، مشى خطواتٍ متعثرةً إلى الأمامِ كأنه يتبعُ مركزَ ثقلهِ، تلاحقت أنفاسه وهو يحاول رسمَ ابتسامةٍ على وجههِ مخاطباً نفسه بأرقِ لهجةٍ تحدّث بها في حياتِهِ: إنها النهايةُ، إنها نهايةُ الشقاءِ...

صرخ بعضُ المارةِ... سقطَ الرجلُ. تهاوى كأنه يسقطُ من غيمةٍ، فيما تدحرجتِ البطيخةُ من يدهِ مبتعدةً،

واصطدمت بعمودِ الكهرباءِ المعدني المتين، منفجرةً عن نزيفٍ أحمر، محبوسٍ منذُ زمنٍ بعيدٍ داخلَ قشرةٍ سميكةٍ من القهر، كانت أطيافٌ سريعةَ ٌ تمرُ أمامهُ، وجوهُ أشخاص أحبهَمُ وأهداهُمُ عمرهُ، وجوهُ أصدقاءٍ تسامرَ معهم ساعاتٍ وساعات، رؤوس عجولٍ مقطوعةٌ ومسلوخةٌ، مشفى الأحذية، صورَ الطبيب بتحذيراتهِ الكئيبة، لكن الصورة الأخيرة التي تجمدت بخيالهِ قبلَ أن يتقاعدَ قلبُه عن العمل، كانت صورةُ طفلٍ غافٍ في حضنِ أمٍ تقرفصُ على رصيفِ الحياةِ تبيع الجبنَ لتطعمَ صغارها.

كانت خيوطَ من دمٍ تسيلُ من أنفهِ وأذنيه، وهو يسائل الحياة سؤالهُ الأخير:

ترى ما مصيرَ هذا الصغيرِ الغافي في حضنِ أمِهِ؟!!

الموت لا يقبـــل الرشـــوة

تدور صينية القهوة على المعزين، ينتظر دوره، عن يمينه صالون النسوة الباكيات، تساءل وهو يتناول فنجان قهوته: لماذا لا يبكي الرجال مثل النساء؟ وهل البكاء صفة من صفات النساء وحدهن؟ وتخيل الرجال يبكون بالطريقة ذاتها التي تبكي بها النساء، فضحك في سره، ورشف قهوته متذكراً أن عليه أن يزور بيتين آخرين ليعزي. حدث نفسه:

اليوم ضربت الرقم القياسي في التعازي. الحمد لله انه يوم إجازة، الوقت فيه طويل وفضفاض.

مزق الصمت صوت امرأة تولول: لم تعش حياتك يا حبيبي، وعلت موسيقى البكاء الجماعي ثم تخافتت بعد دقائق. غاص قلبه وهو يردد صدى تلك الجملة: لم تعش حياتك، وبدت له شديدة الوضوح لدرجة السخف، وشديدة الغموض لدرجة التعقيد في الوقت ذاته، لكنه وافق المرأة بأن الشاب المتوفى لم يعش حياته بالمعنى الزمني، ولكن كيف يعيش الإنسان حياته؟ تساءل بقلق، فيما أتاه صوت

ساخر أحسه يخرج من فوهة مزهرية سوداء مزينة برسوم ذهبية قبالته، يأكل ويشرب وينام، كان الصوت ساخراً لدرجة أزعجته حقاً..

وها هو رجل على أعتاب سن التقاعد، ترى كيف عاش حياته، وتخيل نفسه في كل مراحل حياته مهموماً بدرجات متفاوتة، وبدت له لحظات السعادة قصيرة وعابرة، تترك أثراً طفيفاً كالأثر الذي يتركه اصبع في العجين سرعان ما يزول. وبدت له لحظات الألم عميقة ومديدة تترك وشماً في روحه وذاكرته لا يزول.

وهمس جاره في أذنه: المسكين مات فقعاً وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين..

نظر إلى محدثه، كان رجلاً كهلاً، تغضن وجهه بطريقة أثارت قرفه، وتأمله من مسافة القبلة، ابتلع ريقه محدثاً نفسه: ما أبشع النهاية... لكنه أحسه كهلاً سعيداً لأنه لا يزال حياً، لكأن السنوات التي انقصفت من عمر الشاب قد أضيفت إلى عمره..

قال الكهل: المسكين كان كالحصان، لكنه خسر خسارة هائلة بالتجارة، أوشك على الإفلاس، فمات. وجد نفسه يرد بآلية: لقد ارتاح.

ترى لماذا نقول كلمات لا نعنيها، ولا نؤمن بها، هكذا تساءل حين همس الكهل مجدداً في أذنه: أتعرف، لقد أصبت مراراً بالسكتة القلبية، وفي كل مرة كان الله ينقذني،

الله وليس الأطباء... وابتسم كاشفاً عن لثة عارية بنفسجية مهترئة، فأثار القرف عند مستمعه، واضطر أن يقول له مجاملاً: الحمد على سلامتك.

انتفض من مكانه هارباً من مكانه المقيت، متجهاً إلى بيت التعزية الثاني الذي ينتظره، وفي طريقه استوقفه عند منعطف الشارع صوت ملح يناديه، عبد المجيد، عبد المجيد، تلفت ليرى رجلاً أنيقاً يسرع باتجاهه، حياه الرجل باسماً فرد التحية محاولاً تذكر صاحب الوجه. إنه أليف، يشعر أنه يعرف صاحبه، لكن أين لقيه؟ ومتى؟ لم يتذكر، ابتسم الرجل الأنيق وقال ضاحكاً: لم تتذكرني، أليس كذلك؟

تمعن عبد المجيد في وجهه وقال متأسفاً: للأسف لم أتذكر أين التقينا؟

قال الرجل الأنيق: سأذكر، هل تمانع أن أدعوك لشرب كأس من البيرة في مقهى قريب.

استغرب عبد المجيد من لسانه الذي دار للحال في فمه قائلاً: لا أمانع.

عجباً ليس من عادته الإذعان بهذا الاستسلام التام للآخرين، خاصة للغرباء، كيف وافق هذا الغريب قبل أن يتذكره. سارا متلاصقين، يتضارب كتفاهما قال الرجل: ستتذكرني من تلقاء نفسك في الحال، هل تذكر رحلة الطائرة بين دمشق والقاهرة سنة 1972.

ومضت ذكرى بعيدة وقوية في ذهن عبد المجيد: تلك الرحلة التي توفي فيها شاب في الأربعين بسكتة قلبية ولم يستطع أحد إنقاذه.

ضحك الرجل الأنيق قائلاً: جيد، ذاكرتك ممتازة، وأنت كنت في الطائرة أليس كذلك؟

وحاولت تهدئة المسافرين وإداخال الإطمئنان إلى قلوبهم.

ربت الرجل على كتف عبد المجيد قائلاً: ذاكرتك ممتازة يا عبد المجيد.

قال عبد المجيد: وهل تنسى تلك الرحلة، رجل يموت في الفضاء.

قال الرجل: وماذا في ذلك الموت هو الموت.

–لكن ما أبشع أن يموت الإنسان في طائرة، كم سبب ذلك من أذى ورعب للمسافرين.

ابتسم الرجل: الناس دوماً يخشون الموت، على الرغم من أن حياتهم قد تكون موتاً أكثر من الموت.

وصلا إلى مقهى رصيف قريب، جلسا متقابلين، سأله عبد المجيد: لكن اعذرني لم أتذكر اسمك بعد.

قال الرجل: اسمي منقذ.

ابتسم عبد المجيد: منقذ اسم ظريف، ترى من أطلقه عليك أمك أم أبوك؟

ضحك منقذ متهرباً من الجواب وقال: أخبرني، هل وفقت بمساعيك يومها.

تساءل عبد المجيد: أية مساع؟

قال منقذ: هل نسيت أنك حكيت لي ونحن في الطائرة، أنك ذاهب للتوفيق بين ابنتك وزجها، لأن المشاكل بينهما أوصلتهما إلى حد الطلاق.

أصيب عبد المجيد بذهول وتساءل: أنا حكيت لك كل ذلك.

قال منقذ: معك حق، الحديث عمره أكثر من خسمة عشر عاماً.

قال عبد المجيد وكأنه يحدث نفسه: لكن كيف أبوح بتلك الأسرار الشخصية لغريب؟

قال منقذ: ليس أسهل من البوح بالأسرار أمام الغرباء، والعابرين، لأننا لا نخشاهم، فهم يتركوننا احرار من تدخلاتهم وتقييماتهم.

-معك حق.

اقترب منهم النادل، طلب منقذ زجاجتي بيرة وبطاطا مقلية، قال لعبد المجيد: أحس بجوع.

سأله عبد المجيد: ماذا أنت فاعل هنا، أين...؟

قاطعه منقذ: في الواقع أتيت لمهمة محددة، وصلت منذ ثلاثة أيام وسأغادر غداً.

-هل أنت تاجر؟ اعذرني نسيت مهنتك، هل سألتك ونحن في الطائرة عن عملك؟

رد منقذ: لا، لم تسألني، كنت تتحدث عن نفسك فقط، كنت.ممتعضاً بشدة من خلافات ابنتك مع زوجها، ولكن قل لي هل أثمرت مساعيك في إعادة الوفاق بينهما.

-إطلاقاً، لقد حصل الطلاق في أثناء وجودي في القاهرة.

رد منقذ مازحاً: لعلك أسرعت في طلاقهما؟

قال عبد المجيد: ربما، لا أعرف، لكن ذاكرتك مدهشة فعلاً، كيف تتذكر كل تلك التفاصيل، كيف وكأن فكرة ومضت فجأة في ذهن عبد المجيد: كيف عرفتني في الطريق وناديتني بعد كل تلك السنوات؟ هل رأيت وجهي؟ أم عرفتني من ظهري...

ضحك منقذ مردداً عبارة زميله الطريفة: عرفتني من ظهري، قائلاً: معك حق، الظهر يدل على الشخص كالوجه تماماً، في الواقع يا عزيزي، أنا كنت أقصدك.

وضع النادل زجاجتي البيرة على الطاولة مع كأسين كبيرتين، وخاطب منقذ قائلاً:

-بعد دقائق ستكون البطاطا المقلية جاهزة.

شربا البيرة، بعد أن رفعا كأسيهما عالياً وقال كل واحد للآخر في صحتك.

تساءل عبد المجيد: أتقصدني أنا!

ابتسم منقذ وقال: أقصدك شخصياً يا عزيزي عبد المجيد.

-خير، هل تريد مساعدتي بأمر ما؟.

قال منقذ: لا أبداً لا أريد منك شيئاً، بل أتيت لأصطحبك إلى العالم الآخر...

أحس عبد المجيد بامتعاض شديد وقال بلهجة موبخة: لا أحب هذا الحديث، حتى لو كان مزاحاً. تابع منقذ باللهجة المرحة نفسها: أنا لا أمزح صدقني، هذه مهمتي تحديداً يا عبد المجيد، أنقل الناس إلى العالم الآخر، أساعدهم في العبور.

قال عبد المجيد ساخطاً وقد هم بالقيام: لا أستظرف حديثك أبداً يا سيد منقذ، ولفظ اسمه بطريقة أقرب للسخرية والاحتقار.

-مهلاً، مهلاً يا عزيزي، لا تغضب، لا تغادر الدنيا غاضباً، والله الشاب الفلاني الذي كنت تعزي به منذ لحظات سلمني روحه ببساطه تامة، قال لي: ارحني من عذاب هذه الدنيا الذي لا يطاق، والمرأة المسكينة التي كنت تقصد بيت ابنها لتعزيه بها، سلمتني روحها ببساطة أيضاً، رغم أنها كانت شديدة الولع بحفيدها.

أحس عبد المجيد بالشلل، وآمن أن رجليه لن تقويا على حمله لو حاول القيام، وما عاد باستطاعته رشف البيرة ولا الكلام، نظر في عيني منقذ، أذهله أنه للمرة الأولى يتأمل عينيه جيداً. إنهما عينان بلا بياض، مجرد سواد، سواد فاحم، أحس برعشة، وأخذ يرتعد، إنه يحس بأعماقه لاواعياً أنه في حضرة الموت، لكن هل خطر له أن يأتيه الموت بصورة رجل أنيق يشرب البيرة.

تابع منقذ كلامه بلهجة بسيطة مرحة وهو يرشف البيرة: عبد المجيد، أنا مجرد موظف، أوصل الناس، الذين تقدم لي أسماؤهم كل يوم إلى العالم الآخر.

تحامل عبد المجيد على نفسه وتساءل قلقاً: تقدم لك أسماؤهم؟!!

قال منقذ: أجل، كل يوم، يطلب إلي أحضر فلاناً، طفلاً، شاباً، كهلاً، مريضاً، صحيحاً معافى، أوه لا أدقق، المهم أن أوصل تلك الأرواح إلى العالم الآخر.

أخذت أسنان عبد المجيد تصطك مصدرة صوتاً كالقرقعة، لقد سيطر عليه منقذ، إنه يشعر أنه في حضرة الموت، الذي يدعوه لشرب كأسٍ من البيرة قبل أن يغادر، أعمل تفكيره وخطر له لو يستطيع أن يتملص منه، أن يرشوه، آه، ليت الموت يقبل الرشوة، هكذا كان يحدث نفسه، حين أجبر على السيطرة على اصطكاك أسنانه وارتعاد جسده سأل منقذ:

–منقذ، أمهلني فرصة، سأودع أسرتي، بل أمهلني بضع سنوات أخرى أرجوك.

ابتسم منقذ قائلاً: أنا عبد مأمور يا عبد المجيد، صدقني أنا مجرد وسيط.

اقترب منه عبد المجيد، وركز نظرته في سواد عينيه الشديد وقال: اطلب مني ما تشاء، سوف أعطيك مهما طلبت...

قاطعه منقذ ضاحكاً: حقاً أنت ظريف، لكن لا مجال للتراجع يا عبد المجيد، ثم انفجر ضاحكاً، ثم ما هذه الرشوة؟! في عالمنا هذه الكلمة ليس لها وجود.

ردد عبد المجيد مرتعباً: في عالمكم، تقصد الموت، كيف هو؟

أخذ منقذ يلتهم البطاطا بتلذذ، وهو ينفخ البخار الساخن من فمه ويقول:

عالمنا بسيط، لطيف، ومريح، ليس فيه شر.

–وماذا فيه إذاً؟

ابتسم منقذ وقال: سوف ترى.

أخذ عبد المجيد يحس بضيق يتعاظم في صدره، تمنى لو يتمكن من الهروب، لكنه عاجز، ثمة قوة تسمره في مكانه، حل صمت ثقيل قطعه عبد المجيد متسائلاً:

–على أية أسس تسلب الناس حياتهم؟

قطب منقذ حاجبيه ونظر بقسوة إلى عبد المجيد قائلاً: أنا لا أسلب الناس حياتهم، أنا لست لصاً، قلت لك أنا مجرد موظف، مجرد وسيط، أنقل الأرواح إلى العالم الآخر، أنقلها ولا أسلبها ما هذه المفردات البشعة في عالمكم..

قال عبد المجيد: لكنك تسبب الموت لهؤلاء المساكين.

-الموت، أجل في لغتكم اسمه الموت، لكنه هناك، في العالم الآخر، اسمه رقاد، سلام، راحة.

-لكن على أي أساس يتم اختيار هؤلاء الأشخاص، أقصد لماذا يموت طفل صغير بينما عجوز كهل يظل على قيد الحياة.

-والله لا أعرف، ثمة حكمة لا نستطيع فهمها.

-ولماذا لا يمكن فهمها؟ تساءل عبد المجيد بكل جوارحه: أريد حقاً أن أعرف هذه الحكمة.

قال منقذ: عبد المجيد، أرجوك أن تهدأ، الحياة مهما طالت أو قصرت ستنتهي ذات يوم.

-أجل أعرف، لكنني لا أريد أن أموت الآن، ثمة أشياء تنتظرني، واجبات، والتزامات أسرتي، تحتاج إلى، أرجوك يا منقذ أمهلني..

اختنق صوت عبد المجيد، فيما أشرف منقذ على التهام البطاطا المقلية كلها، قال: ما أصعب الجوع يا عبد

المجيد، أنتم في هذا العالم تجوعون. الجوع يدفع لارتكاب الجرائم لكن هناك لا يوجد جوع ولا جرائم.

يبدو أن عبد المجيد لم يصغ لكلام منقذ، كان مهتاجاً يريد أن يفر من الموت، اقترب من منقذ وحطت راحته على كتفه، صعقته برودة ثلجية منبعثة من كتف منقذ، أحس برعشة الموت تسري من جسده، ورفع كفه في الحال، لكأن كهرباء سرت فيها، أحس أنه في حضرة الموت وجهاً لوجه.

قال عبد المجيد بصوت أخذ الرعب يملؤه: منقذ أرجوك، تظاهر أنك نسيتني، قل لهم لم أجده و...

انفجر منقذ بضحك هستيري وهو يفكر بسذاجة عبد المجيد، وقال بعد أن هدأت عاصفة ضحكه: وهل تظنني شرطياً أريد إبلاغك محضراً في المحكمة، لو تعرف الأساليب والوسائط المتوفرة لدي للوصول إلى البشر لذهلت، هل تذكر يوم كنا في طائرة، صرخ عبد المجيد: أنت من قتلت الرجل، أنت قتلته...

هم عبد المجيد بالفرار، دفع كأس البيرة بيده ساخطاً وقد بلغ انفعاله ذروته، وحين هم عبد المجيد بالفرار سقط جثة هامدة، تجمع الناس حوله خائفين يطلبون سيارة الإسعاف أو طبيباً بينما كان منقذ يدفع الحساب ببرود ويهمس بصوت لم تسمعه أذن بشرية: هيا يا عزيزي عبد المجيد تهيأ للرحلة إلى العالم الآخر.

أحبكم راقدين بسلام

فوق هذه الصخرة يلوذ بالفرار من العالم، (يبدأ بنسيان كل همومه تدريجياً) ، وهو يراقب حركة الموج الأزلية في غزلها لصخور الشاطئ، منظر الزبد يدهشه، يحب أن يسميه رغوة الحياة.

تنهد بارتياح وهو يشعر بصفاء ذهنه بعد ساعتين من تأمله للبحر، لكنه في آخر زفرة من تنهيدته الطويلة لفحته حقيقة جعلت قلبه يتقلص كأنه غمر فجأة بماء بارد، واعترف بانكسار أليم أن أغلب الذين يحبهم صاروا في الضفة الأخرى من العالم، خطفهم الموت... أمه، وأبوه، وزجته وأغلب أصدقائه..

كان قاع الأسى يجذبه ليرتمي فيه، لولا تنبهه لحركة غير عادية، وصوت أشبه بالأنين، تلفت حوله، فلم يتبين شيئاً، قام عن صخرته الأثيرة وأمعن النظر حوله، فلمح على بعد أمتار إلى يمينه جسماً يطفو ويغور في الماء، أنخلع قلبه، إنه إنسان يغرق، وبآلية بحتة رمى بنفسه في الماء بكامل ملابسه وسبح مسرعاً باتجاه الغريق، وهو

يشعر بأنه يود التهام المسافة ويحس في أعماقه بقدرته على ابتلاع البحر لينقذ هذا الغريق... لم تنقض ثوان حتى كان إلى جانب الغريق، اصطدم به، ثم انتشله رافعاً إياه من تحت إبطيه ليتبين وجهه، كان وجهاً وسيماً لطفل لم يتجاوز العاشرة من عمره كما قدّر وقد امتلأ بالزبد وازرقت شفتاه، وغامت عيناه فلم يبد سوى بياضهما.

أخذ قلبه يخفق بشدة، وهو يقود الغريق مسرعاً باتجاه صخور الشاطئ، ويحاول رغم انهماكه ولهاثه أن يسترق النظر إلى وجه الطفل ليعرف إن كان لا يزال حياً، لكن زرقة الشفتين الشديدة وانقلاب عينيه كانا يثيران في نفسه أشد الرعب، حمله إلى صخرة تأملاته، ومدده على بطنه متذكراً المبادئ في إسعاف الغريق، أخذ يضغط بيديه معدة الطفل بقوة، ويضغط على صدره، فيما الجسد النحيل يبدو مستسلماً وغير مستجيب إطلاقاً ليدي المسعف، قرب وجهه من وجه الطفل ولمسه وتأمله: يا لشحوبه، تساءل جزعاً: أهو حي؟ وضع أذنه على صدر الغريق وحاول أن يسمع خفقان قلبه، وقد تحفزت كل حواسه وتركزت في أذنيه، لكن صوت الموج كان يطغى، انتفض واقفاً وهو يحس بذعر ويتلفت حوله باحثاً عن منقذ وجد نفسه يقرفص ويمسك يد الطفل ويحاول جس نبضه، كان الصغير شديد النحول وبدا معصمه كغصن مريض مقتلع ومرمى، صرخ بصوتٍ عالٍ: الحمد لله، الحمد لله، وقد أحس بالنبض الناحل في معصم الطفل.

عاود الضغط المتناوب على رئتيه، وأخذ يصفعه برقة على خديه، ويضغط على معدته، لشد ما كان مرتبكاً ومتعثراً بحركاته العشوائية، والطفل لا يبدي أي استجابة، قرر أن يحمله ويركض به إلى أقرب مستشفى.

ألقى جسد الصغير على ظهره، ممسكاً إياه من معصميه بقوة، وأخذ يركض بقوة لم يعهدها طوال حياته، لكنه تنبه وسط لهاثه ومخاوفه أن سائلاً دافئاً انسكب بغزارة من فم الطفل على رقبته، دمعت عيناه وهو يحس بقيء الصغير متبوعاً بلهاث وشهقات، أراد أن يستدير ليتأمل وجهه، لكن قدميه استمرتا في حمّى عدوهما، وبعد لأي وصل إلى الطريق العام، ووقف وسط الشارع مغسولاً بالعرق يصرخ بأعلى صوته: غريق، غريق... اضطرت شاحنة محملة بالصخور إلى التوقف ولم يحس أن منظره يحمل الطفل مثيراً للرعب إلا حين التقت عيناه بعيني سائق الشاحنة الذي أوقف شاحنته وسأله مبهوراً: خير يا أخ، مابه ابنك؟

قال: أرجوك انقلنا إلى أقرب مستشفى.

صعد إلى جوار السائق، وجلس الغريق بحضنه، أمكنه أن يتأمل وجهه الآن، لقد تلون وجهه قليلاً رغم أن زرقة شفتيه لا تزال شديدة، ولم يعد جفناه متشنجين، كان يبدو كمن يغط في النوم. تركزت أنظاره على صدر الصغير.

كان يتنفس ببطء، وأخذت دموع العرفان تنسكب من عينيه وهو يقول الحمد لله، الحمد لله...

تنبه إلى أن سائق الشاحنة يسأله بصوتٍ خشن ومرتفع: ما به صغيرك؟

قال: لقد غرق.

–وكيف ينزل البحر وهو لا يجيد السباحة؟

–لا أدري.

–لا تدري! عجباً، كيف يغافلك ويتجرأ على النزول إلى البحر...

– أرجوك، هلا أسرعت قليلاً.

توقفت الشاحنة عند الباب الخارجي للمستشفى، ونقل الصغير إلى الإسعاف، طلبت ممرضة لطيفة منه أن ينتظر في الخارج وأشارت إلى مقاعد معدنية في ردهة الانتظار، جلس مهدود القوى وقد أخذ التعب يتفصدّ من قدميه وعضلات يديه بنبضات قوية متلاحقة من الألم أحس أن شرايينه في طريقها للتمزق من نبضاتها المتوترة.

بدت له نصف ساعة الانتظار هذه دهراً، كان يتلهف لمعرفة كيف يسعفون الصغير؟

هل سينقذونه؟ هل هم على درجة عالية من الكفاءة والعلم لإنقاذه، وآخر ما تساءله: من يكون هذا الصغير؟!

فتح الباب أخيراً، ونادته الممرضة أن يدخل، وأومأت إليه أن يلحقها إلى مكتب طبيب الإسعاف الذي ابتسم في وجهه مطمئناً وقال: انقذنا صغيرك، وهو الآن يرقد في سريره تحت خيمة من الأكسجين.... لمح ثياب الصغير متكومة أرضاً بما فيها سرواله الداخلي غاص قلبه وهو يتخيله عارياً ووحيداً، سأله الطبيب عن اسمه، واسم ابنه.

أجاب: إنه ليس ابني، أنا مجرد منقذ.

بدت الدهشة على وجه الطبيب وتساءل: إذاً أنت لا تعرف الطفل؟

-إطلاقاً، لقد تنبهت إلى أنه يتخبط في الماء، وانتشلته.

-حسناً، في هذه الحالة، ستوقع على أوراق خاصة، ريثما يتم العثور على هوية الطفل، ومعرفة ذويه.

أراد أن يرى الصغير ليطمئن عليه، قال له الطبيب: ستراه بالتأكيد، وقاده عبر رواق طويل إلى غرفة مبردة، حيث وجد الصغير نائماً في سرير أبيض، وقد وضعوا فوق وجهه قناعاً شفافاً ليستنشق الأوكسجين... اقترب منه وأمسك يده يقبّل ظاهرها وباطنها، وهمس وهو يقاوم دموعه: الحمد لله على سلامتك...

ربتت يد الطبيب على ظهره وقال: يا لنبلك يا أخ كريم.

قال: إنه الواجب يا دكتور، الحمد لله أنني كنت أجيد السباحة، الحمد لله أنكم أنقذتموه.

وقع أوراقاً، وكتب عنوانه ومهنته كمدير لأكبر شركة برادات منذ عشرين عاماً.

ما كاد يصل بيته حتى تهاوى على الأريكة، وبدا له ما مرّ معه أشبه بكابوس، خلع ثيابه المبتلة وهو يشعر أنه يبذل جهداً لا يقل عن الجهد الذي بذله في الركض حاملاً الصغير، كان جسده رطباً يمض باستمرار بآلام عضلية، وحين اتجه إلى الحمام ليغتسل خانته قواه أحس أنه يتهاوى، داهمه نعاس قوي وفيما هو متجه إلى فراشه، تلاحقت ضربات قوية على الباب، تنهد منزعجاً من عساه يقصده الآن، فتح الباب ليطالعه رجل أنيق وغريب يبتسم له بمودة قائلاً:

-حضرتك الأستاذ كريم سواح أليس كذلك؟

-أجل.

-أنا والد الطفل الغريق الذي انقذته.

أفسح له مجالاً للدخول قائلاً: أهلاً تفضل، اعذرني وأشار إلى منامته، سأبدل ثيابي حالاً...

-لا أرجوك، ابق كما أنت، لقد أتيت أشكرك وأرد لك الدين.

قاطعه: العفو، لا شكر على واجب، ضحك متابعاً: أحمد ربك كوني أجيد السباحة، لكن ما الذي قاد صغيرك إلى البحر وهو لا يجيد السباحة.

قال: إنه مولع بالصيد، رغم أنه لا يجيد السباحة، المهم يا أستاذ كريم، أنا مدين لك بحياة ابني.

–العفو يا سيد...

–السيد سلوان حكيم...

–آه، أنت السيد سلوان، الفلكي والمنجم الشهير...

ضحك السيد سلوان قائلاً: أجل أنا أشهر فلكيي العالم.

ضحك كريم متوتراً وتساءل: أليس غريباً أن يغرق ابن أشهر منجمي العالم...

قال سلوان: معك حق، تساؤلك منطقي وذكي. لكني في الواقع مدين لك يا سيد كريم، مدين لك بحياة، وأنا من عادتي أن أرد الدين على مبدأ العين بالعين، والسن والسن، وحياة بحياة.

كان كريم ينصت مبهوراً لكلام السيد سلوان، وبطرفة عين تذكر صفحات الجرائد والمجلات التي يكتب فيها سلوان تنبؤاته الشهيرة، وتساءل: أتراه عجز عن تنبؤ أن ابنه سيغرق ذات يوم، وسوف يتم انقاذه.

تابع السيد سلوان واثقاً من نفسه: إذاً يا سيد كريم، كما قلت لك أنا مدين لك بحياة، ولك أن تختار حياة مَنْ مِن الناس الأحباء إلى قلبك تريدها أن تعود؟

حملق كريم بوجه السيد سلوان الرصين مبهوتاً وسأل بكل الدهشة والذعر في قلبه: ماذا؟ ماذا تقول؟

قال سلوان بنفس الصوت الواثق: لك كل الحق في أن تدهش، وأنت بحضرة اشهر منجمي العالم، لكني أعني تماماً ما أقول، لأقل لك ببساطة أنني بإمكانياتي غير العادية والسرية، أتمكن من إعادة حياة إلى عالمك، فهلا اخترت زوجتك، أمك، أباك.

قاطعه كريم مبهور الأنفاس: أرجوك يا سيد سلوان قدّر إرهاقي وتعبي أنا لا أحتمل هذا الكلام، أرجوك لا تتلاعب بأعصابي.

قاطعه السيد سلوان وهو يحس بإهانة: أنا لا أتلاعب بأعصابك يا سيد كريم، ولولا تقديري العميق لنبلك وأخلاقك، ولولا أنني أعرف بالتفصيل كيف انقذت ابني، لما عرضت عليك، مالم أعرضه على بشري من قبل، لكني أعذرك، فعقل الإنسان محدود، أقصد قدرته على استيعاب الأمور الخارقة محدودة...

في الواقع لا أستطيع أن أشرح لك كم أملك وزملائي أشهر منجمي وفلكيي العالم من قدرات. باختصار أقول لك، فكر جدياً أية حياة تريدها أن تعود إليك، سترجع

بالحالة ذاتها التي غادرت بها الحياة، وكي تصدق أنني جاد وقادر على تنفيذ كلامي سوف أقدم لك دليلاً بسيطاً، قام السيد سلوان وأخرج من جيبه منديلاً، وهرس ذبابة كانت واقفة على زجاج النافذة وأحضرها إلى السيد كريم واضعاً الحشرة الميتة أمامه، ثم أغمض عينيه وتمتم بكلمات فإذا جسد الحشرة المسحوق يلتئم ويتماوج بحركات لينة وتعاود الطيران...

اختنقت الكلمات في حلق كريم وهو يقول: عادت للحياة!!

ابتسم السيد سلوان وقال: هذه مجرد تجربة بسيطة سأتركك الآن، وسأمر بك بعد أيام لتختار حياة غالية تريدها أن تعود...

تركه السيد سلوان، وهو يعاني من تفكك داخلي لم يعهده في حياته، كان يشعر أنه مرمي خارج ذاته، لكن جسد الذبابة المسحوق في خياله، وكيف أعادها للحياة، كان من القوة أن أجبره على تخيل أن أحد موتاه قد يعود إلى الحياة... ترى من سيختار؟ ودّ لو يهرب من هذا السؤال، لكنه عجز، فهو يتكمشه كالأخطبوط، تذكر أن والده توفي منذ خمسة عشر عاماً، وأمه منذ سبع سنوات، وزجته منذ ثلاثة أعوام. كل هؤلاء الثلاثة يجمعه بهم حب كبير، والده ظل يعمل سنوات طويلة عملاً إضافياً بعد الظهر ليتمكن من تأمين مصاريف دراسته الجامعية، وكي

لا يحرمه من متعة المصروف وهو يعاشر أولاد الميسورين، تذكر ابتسامته وهو يرجع مساءً إلى البيت مهدوداً من التعب، مدارياً تعبه بابتسامة يعتقد أنها قادرة على الإقناع، غاص قلبه بحب عارم تجاه أبيه، وقرر أن يختاره ليعود إلى الحياة، عساه يعوضه عما قاساه لأجله... لكنه تذكر أن والده غادر الحياة في الستين من عمره، وهو الآن في الثانية والخمسين، ترى هل سيكون بين الأب وابنه ثماني سنوات فقط؟! وتردد صدى صوت السيد سلوان يقول له: سيعود الميت بالحالة التي غادر بها الحياة، تذكر أن والده عانى طويلاً من أعراض التهاب البنكرياس، ويدخل في نوبات من الألم تجعل كل من في البيت حتى الجيران مستيقظين صابرين على الأنين المرتفع لرجل يذله الألم.

ترى هل سيتمكن لو عاد والده إلى الحياة أن يعتني به، وأن يتحمل نوبات آلامه، وهو الذي يشعر أن قوة الشباب تغادره بسرعة؟ ماذا لو عاش والده عشرين عاماً أو أكثر وهو يئن ألماً من نوب التهاب بنكرياسه، وقد يضطر للخضوع لجراحة، أو لدخول الإسعاف، وقد يضطر ليجلب له ممرضاً أو ممرضة، وجد نفسه يتملص من فكرة عودة والده للحياة ولسان حاله يقول: آسف يا أبي، فلتبق مرتاحاً في رقادك الأبدي، وحاول أن يجد عذراً يرضي ضميره، بأن خمسة عشر عاماً من الموت تجعل من الصعوبة إعادته إلى قيد الحياة...

فكر بأمه، حبه الكبير كما يسميها، تهلل وجهه فرحاً لفكرة عودتها إلى الحياة ، ستعود لطيفة حنوناً في الخامسة والستين كما غادرت، تذكر كيف ماتت دون إنذار، دون أن تعطيهم فرصة لوداعها، وفاة غامضة لم يستطع الأطباء تحديد سببها بدقة، كفراشة رشيقة طارت روحها، أجل يا أمي سأختارك لتعودي، تبين عمق مشاعره، لكم هو مشتاق إليها، وتذكر طقوسها الحلوة من تبخير البيت كل يوم بالبخور، والدعاء للجميع مبتدئة بأولادها وأحفادها، منتقلة إلى الجيران والأصحاب، ثم شاملة الناس أجمعين بما فيهم السجناء والمرضى والمقعدين، كان يضحك وهو يقول لها: ألا تتعبين من ترداد هذا الكلام كل يوم وأنت تطوفين بدخان بخورك ، كان يحس مع تعاقب الأيام والسنوات أن البخار يشع من أمه وليس من محرقتها، لكنها كانت تجيبه بيقين أن العالم يقوم على صلوات المؤمنين وأنها عندما تصلي تصير صلاة، وأن العالم كان لينهار لولا صلوات المؤمنين القديسين.

دمعت عيناه تأثراً، وهو يقول اشتقت لرائحة بخورك، لكن وجهه تقلّص فزعاً وهو يتذكر فهيراً بجسدها البض.العاري ترقد في سريره وتدخن سجائرها بتلذذ بعد انتهائهما من طقوس وصال حار، فهير المطلقة الشهية التي تزوره منذ سنوات والتي لم تلمح يوماً لزواج، ولم تطمع أبداً بهدايا ومال، مجرد علاقة تشعرها بكيانها كأنثى في مجتمع كاد ينسيها أنوثتها، وتساءل كيف سأتمكن من لقاء

فهير إذا عادت أمي إلى قيد الحياة، أمي المتدينة التي لا يمكن أن تنظر إلى علاقتي بفهير إلا كزنى، وتذكر كم كان يضيق بملاحظتها حول وجوب تربية أولاده تربية دينية ووجوب التزام طقوس الصوم والصلاة، لدرجة كان يعترض بعصبية أحياناً قائلاً: أولادي وأنا حر بهم، أربيهم كما أشاء...

طافت بذهنه عبارة الحي أبقى من الميت، أتراه يعني أن فهير أهم من أمه؟ لبسه شعور بالخزي وتخيل وجه أمه وكأنه طعن إلى الأبد فيما لو كانت تقرأ أفكاره في تلك اللحظة؟ لكنه استمر بتفكير الخيانة وهو يقول: ما معنى أن تعود أمك التي عاشت خمساً وستين إلى الحياة؟ لتقيدك وعاد جسد فهير يلّح عليه لدرجة الوجع، فليعترف أنه لم يسعد مع امرأة كما أسعدته فهير، وحدها لم تتملكه، تركته حراً، لذلك وجد نفسه يتعلق بها حتى صار يتذكر عيد ميلادها قبل تاريخه بشهر، ويتذكرها في أسفاره أكثر مما يتذكر أحفاده وأولاده...

وجد نفسه ينسّل من تفكيره بأمه كسارق يخشى أن يضبط، تذكر زوجته وأم أولاده غرق بالحنان وهو يستعيد صورهما معاً من يوم جمعهما الحب على مقاعد الجامعة، كيف تواعدا أن يتلازما إلى الأبد، اعترف صادقاً إن أجمل سنوات حياته كانت سنة الخطوبة، يجب أن يسميها سنة الابتسام، عاش منتشياً بأعذب ابتسامة لأرق إنسانة ملكت

حواسه، لكن كيف غابت الإبتسامة بعد الزواج، كيف تبخرّ الحب الجميل بعد الزواج ليختنق بواجبات والتزامات وتذكر شجاراتهما العنيفة والموضوع الأبدي علاقته بأهله، كم كان يغيظها أن يساعد أهله مادياً، تحديداً أخته الكسيحة اثر حادث سيارة... ودوماً تحتج بأن أولادها أحق بأمواله .تذكر خجلاً أن شجارهما وصل مراراً إلى الضرب، وتساءل عجباً كيف تسير الحياة بالبشر؟ هل خطر له عندما كان عاشقاً يحمل وروداً وينتظر حبيبته في الدقائق والثواني، أن يصيرا عدوين بعد سنوات من الزواج؟ لا ينكر أنه بكاها بحرقة يوم توفيت شابة بسبب حادث سيارة... تساءل:

أليس من الإنصاف أن أطلب من الفلكي إعادتها إلى قيد الحياة لتسعد بأولادها وأحفادها، ستعيش سنوات من الراحة والهدوء، وسيمكنه أن يعترف لها أن فهيراً دخلت حياته، لا يمكنها أن تلومه وهي القادمة من عالم الغيب، يمكنها أن تعيش عند أولادها أو أن تستأجر لها بيتاً، لكن، ماذا لو أرادت أن تعود المياه إلى مجاريها بينهما؟ تذكر وجهها وجسدها، فبدت له طيفاً، وأحسها أقرب للأشباح، وعجز عن تخيل نفسه وقد عاشرها أكثر من ربع قرن، وجمعته معها ذكريات اعتقد أنها من المتانة ما تجعله قادراً على تقبلها في أي زمن كان، لكم هي خائبة الذاكرة، إنها لم تترك من الزوجة والرفيقة سوى دخان، دخان سرعان ما يتبدد كلما حاول أن يجسده. انتفض من مكانه ورطوبة البحر الزنخة عالقة بجلده. أتراه خائن؟ كيف لا يريد أن

يعود إلى الحياة أحب الناس إلى قلبه، لمح صورته بزجاج النافذة، بدا مخذولاً وتائهاً ومذعوراً في آن قال مخاطباً شبح السيد سلوان: اعذرني يبدو أنني لا أريد أن يعود إلى الحياة أحب الناس إلى قلبي.

موت البجعة

لقد وهبها الله جسداً له طراوة ورشاقة مميزتان، وكان يخيل للناظرين أن هذا الجسد البديع خال من أي مادة قاسية، ليس في هيكله عظام، كانت تملك ليونة ناعمة محببة. هكذا كانت فاتن منذ طفولتها، ابنه عائلة مميزة، من تلك العائلات الارستقراطية التي تقدس الطقوس، وتحترم مواعيد الطعام، وتعطي أهمية بالغة لربطات العنق وللقبعات الفاخرة، ولرحلات الاستجمام وشراء الثياب والعطور الفخمة من أوروبا...

وفي المدرسة الانكليزية في الرياض تلقت فاتن دروسها، وتفتحت موهبتها كراقصة باليه متميزة، حتى أن مدرستها الانكليزية أبلغت الإدارة أن هذه الفتاة معجزة في رقص الباليه، وهي لم تكمل الثامنة من عمرها، وسر الأهل لتفوق فاتن، فالباليه من المواهب الراقية التي تليق بالعائلات الارستقراطية، وفي الفيلا الفخمة المسورة كانت فاتن تلبس ثياب الباليه، وتصير فراشة، تطير من غرفة إلى غرفة، أو زهرة تتلوى على أنغام الموسيقى، كانت تذهل أهلها وزوارهم الكثر بليونة جسدها وطراوته، وتعبير وجهها

المسافر بعيداً إلى فضاءات لا يحلمون ببلوغها، كانت تبكي أحياناً وهي تؤدي رقصتها بكل أحاسيسها، ذلك أن جسدها كان كتلة من الأحاسيس، لكأن طبيعته العادية في طريقها للعبور إلى طبيعة سديمية روحية، كانت قادرة أن تتوحد مع اللحن، فيصير جسدها رمزاً أسطورياً...

وحين بلغت فاتن الثانية عشرة، رشحتها مدرستها الانكليزية- المتخصصة في تدريب الفتيات الموهوبات في رقص الباليه- للاشتراك في مسابقة عالمية لرقص الباليه في باريس، ولم تصدق فاتن أن جسدها يملك كل تلك الطاقات المخزونة، وأنها مبدعة وقد تصير لها شهرة عالمية، وكادت تطير في شوارع المدينة، ودت لو ترقص لكل الناس ساعات وأياماً، بل عمرها كله، وأحست أنها كالعصفور الذي يغرد ويطرب الناس جميعاً... لكنها أطرقت بأسى وهي تعرف أنها لا تستطيع أن تخرج خارج سور الفيلا الفخمة...

لكن حدث ما لم تتوقعه أبداً في حياتها، ذلك أن للأسر الراقية طقوسها وقوانينها، فقد استدعاها والدها إلى مكتبه، وكان منشرحاً ومرحاً، وأخذ يدردش معها في مواضيع شتى، وتلوى حديثه حتى وصل إلى موهبتها الفذة في رقص الباليه، وذكّرها كم شجعها، ثم حكى لها عن أيام دراسته في واشنطن، كيف كان يستهويه شيئان لا ثالث لهما! الأوبرا والباليه، كانت تنصت سعيدة وهي تتأمل هذا الرجل

الارستقراطي الناجح واللبق بفخر وحب، وصمت قليلاً وقد اتخذ وجهه تعبير من يفكر بعمق وقال لها: ولكن يا فاتن يجب أن نفكر بعقل.

واتسعت عيناها بدهشة وسألت بآلية: في ماذا؟

قال بلباقة أمير من القرون الوسطى: أنت فتاة ناضجة الآن، ورقص الباليه قد يكون له تأثيرات سلبية عليك...

ما كان بخار الألم قد بدأ يتكاثف غيوماً في نفسها بعد، ذلك أنها لم تفهم تماماً ما يريده الرجل الذي يفكر بعقل!

سألته: ماذا تعني يا أبي؟

ورد مرتبكاً رغم مداراته لمشاعرها وتظاهره بالمرح: أظن أن والدتك توضح لك الموضوع بأسلوب أفضل مني، ترك كلامه غباشة أمام نظرها وتشويشاً لذهنها، ولازمها طنين أو وشة في أذنها كصوت مذياع غير واضح، ورقصت في ذلك اليوم رقصة البجعة التي نازعت طويلاً ثم ماتت، وحين استلقت على الأرض في نهاية الرقصة كانت تبكي دموعاً مرة للمرة الأولى، ذلك أن حسها الطفولي الخام جعلها تدرك أنها ستكون قريباً تلك البجعة التي ماتت...

وحضرت السيدة الراقية تحتضن ابنتها، وأحكمت إغلاق الباب وراءها بحذر، كأن هناك من يتنصت عليها، وابتدرتها أمها بابتسامتها المرسومة بدقة على وجهها ذي

البشرة الحريرية من تأثير مساحيق العناية بالبشرة الطبية والغالية، قالت لها: فاتن أظن أنك ستفهمين كلامي، وأظن البابا مهد لك بحديثه عن سلبيات رقص الباليه... سكتت قليلاً وهي تتأمل وقع كلامها على الوجه الطفولي المذهول، ثم أخذت نفساً عميقاً وتابعت بثقة: لقد صرت صبية يا فاتن، والباليه بحركاته الواسعة والعريضة، قد يعرض الفتيات لمشكلة في غاية الخطورة.

وارتجفت فاتن من الذعر وردت بآلية: الخطورة؟...

تابعت الأم: أجل يا عزيزتي، أنت تعرفين أن شرف الفتاة هو أهم شيء على الإطلاق، وأن الرياضة العنيفة، وكذلك رقص الباليه، قد يجعلانها تفقد هذا الشرف الثمين...

ضحكت فاتن ببراءة وقالت: أوه يا أمي أتخيل الذهب والألماس بكلمة ثمين...

ابتسمت الأم وداعبت رأس فاتن وقالت: بل أثمن بكثير من الذهب والألماس، إنه لا يقدر بثمن. قالت فاتن قلقة: ماذا تعنين بكلامك يا أمي، إنك تشوشينني، ماذا تقصدين؟!

ردت الأم بحزم: فاتن أنت صبية، بعد سنوات ستصيرين زوجة، ولن نترك هواية الباليه تفقدك شرفك، أوه ألم تفهمي بعد...

وهوت راقصة البالية التي لم تكمل الثالثة عشرة، وتحولت لهلام ملتصق على البلاط الرخامي وانسكبت دموعاً غزيرة على الوسادة الصماء، وشهدت رسوم ورق الجدران الفخم اختناق موهبة رائعة، واستنجد الجسد الطري المعجون بالموسيقى، يستجدي أصحاب العقول الراجحة كي يسمحوا له أن يعيش إحساسه وإبداعه، وأن ينمو ويحلق في سماء الفن، ولكن العائلات الارستقراطية تتبع أسلوب العقل والإقناع، والاحتلال، بهدوء وسلاسة، ولين مبطن بصرامة كالحديد، خنقت فاتن بحديث العقل، بمنطقه المحكم، كسلسلة حديد مقفلة، وصارت تتوه بأفكارها وعقلها يتوقف عند ذلك الشيء الذي لا يقدر بثمن، والذي هو أغلى من كل مجوهرات الأرض، والذي يمكن أن تخسره برقص الباليه!!

ولم يعد جسدها فراشة ولا عصفوراً ولا عطراً ولا موجة ولا غيمة، واستمرت حياتها تتابع بكآبة لطيفة محايدة، وقد استسلمت لحكمة العقل ورغم الأوقات التي كانت تبكي فيها بحرقة لاذعة، إلا أنها كانت تخشى أن تخالف حكمة العقل الذي يقدر الأمور أفضل منها، وهي المراهقة القاصر...

واعتبرت المدرسة الانكليزية انسحاب فاتن من فرقة الباليه جريمة، وليس مجرد خسارة، وفشلت جهودها في اقناع فاتن بالعودة إلى الرقص، كان جواب فاتن الوحيد

نظرة شاردة حزينة وأحياناً كانت تجتر بلسانها فقط كلام أهلها الرزين الذكي والخانق.

ولأن الإنسان يخلق الأمل دوماً، أو هو الحيوان الوحيد الذي ابتدع شعوراً اسمه الأمل، فقد انتظرت فاتن أن تتزوج زوجاً يقدر موهبتها، ويسمح لها أن تمارس رقص الباليه، وكان لها ما أرادته وتحققت المعجزة، وتقدم لخطبتها شاب عربي عاش كل حياته في أوروبا، وله ولع غريب برقص الباليه والرقص التعبيري، وحين رقصت أمامه لم يصدق أن حبيبته تملك تلك المرونة الهائلة، ووعدها أنه سيقبل بشرطها الوحيد، ويتركها تمارس الرقص بعد الزواج، وسيكون فخوراً أن تشارك زوجته في المسابقات العالمية لرقص الباليه، بعد أن تقدم له ذلك الشيء الذي لا يقدر بثمن!

وعادت فاتن تنتعش وتزهر وتورق من جديد، وتألق وجهها بسعادة الإبداع والانطلاق، وتم الزفاف بأفخم أشكاله وكما يليق بأبناء العائلات التي تحترم الأصول والتقاليد، وتتباهى في البذخ وتقدس الشكليات، وسافر الزوجان إلى لندن لقضاء شهر العسل، وكانت المفاجأة التي حضرها لها زوجها رائعة فعلاً، فقد قدمها لأشهر مدربي رقص الباليه في لندن، ورقصت فاتن أمامه، وأكد لها المدرب أنها يمكن أن تكون من أشهر راقصات العالم على الاطلاق فيما لو

تدربت بانتظام ولكن الزوج أجاب بابتسامة حضارية أنهما سيرجعان إلى الوطن بعد شهر...

بعد خمسة أشهر حملت فاتن، وأسعدها الحمل بقدر ما سبب لها غربة عن ذاتها، لأنها ستبتعد عن الرقص، لكن زوجها أكد لها أنه لا يمانع أن تتدرب على رقص الباليه بعد الولادة...

وأنجبت بنتاً حلوة، انصرفت لتربيتها، وبعد أشهر استعاد جسدها وضعه الأول المثالي للرقص، وحين همت بالانتساب لمعهد رقص الباليه، دعاها زوجها إلى عشاء رومانسي في مطعم لا تقصده إلا الأسر العريقة والتي تجيد التحدث بلغة العقل.

وبعد أن شرب نخب أحلى زوجة، وأجمل أم، وأروع راقصة باليه، وبعد أن تغزل طويلاً بزوجته الفنانة المبدعة، ابتسم طويلاً وانتهت ابتسامته بكلمة ولكن... وارتعبت فاتن وهي تتذكر "لكن" أمها، و"لكن" أبيها، ترى كيف ستكون "لكن" زوجها؟!

وعادت الغباشة تشوش نظرها، والطنين يصم أذنيها، وأتاها صوته رصيناً مع الموسيقى الهادئة التي يبثها المطعم:

-حبيبتي، أنت الآن أم، أم لطفلة رائعة، ولا يليق بأم أن ترقص شبه عارية أمام الناس، صدقيني يا حبيبتي أنا مؤمن بموهبتك، فأنت حقاً ظاهرة قلما تتكرر، ولكن هل

فكرت بطفلتك، ماذا سيكون موقفها وأمها ترقص بثياب الباليه على المسرح ومئات العيون تتفرج على جسدها...

قاطعته مذعورة من اللاكن الجديدة وقالت: ولكن الباليه فن راق جداً، وجسد راقصة الباليه هو لغتها في التعبير...

وقاطعها بحزم: أعرف يا حبيبتي وأنا الذي أدمنت حضور حفلات الباليه، ولكن مجتمعنا، وكونك أماً، والأم تعني التضحية، يجب أن تضحي يا فاتن في سبيل ابنتك، فكري بعقلك يا فاتن، أن يكون عقلك كميزان الذهب دقيقاً للغاية...

وعاشت فاتن في مثلث على رأس كل زاوية منه كلمة –لكن– لكن الأم، ولكن الأب، ولكن الزوج، وهي في الداخل شعلة موهبة مختنقة لا تستطيع أن ترقص، وكلما تحركت اصطدمت بضلع قاس، فتاوهت وطنين لغة عقولهم يلاحقها ولا يرضى أن يسكت.

وأخذت تتساءل، أية لغة هذه لغة عقولهم، والطفلة الصغيرة ألا يسعدها أن تكون أمها راقصة مبدعة، وماذا لو تفرجت العيون على جسدها، ولماذا يصرون أن تكون لحماً رخيصاً يثير الغرائز بينما هي قادرة أن تكون سمفونية، وغزالاً رشيقاً، لماذا يصرون أن يكون جسدها عورة وهي تحسه قصيدة...

وحوصرت فاتن في كلمة لكن، في مئات الجمل التي تبدأ كلها بكلمة لكن، ومن وقت لآخر كانت رجفة مبهمة تجتاح جسدها، وأدركت وحدها أن جسدها يرتجف متألماً يشتاق أن يكون ذاته، ليحطم حلقات سلاسل الحديد التي طبعت على كل حلقة كلمة لكن، كانت تغمض عينيها وتحاول أن تفكر بعقولهم، ولم تدرك أن حزنها اشتد إلى درجة مخيفة، وأنه احتل الجسد الطيع اللين، وأن عقلها صار يئن تحت ثقل عقولهم يجرونه مجبراً ليفكر مثلهم، وبلغ بها الإرهاق حداً يصعب تحمله.

وذات مساء لبست ثياب راقصة الباليه، وأزاحت الستائر وفتحت النوافذ، وأخذت ترقص وترقص، وتحولت النافذة إلى مثلث لكن الأبدي، ووجدت نفسها تهرب منه، وذعر الناس وهم يرون راقصة باليه تطير من النافذة وتسمرت عيونهم عليها كالمسامير تنغرس في لحمها، وانفتحت أفواههم في وقت واحد وانطلقت كلمة واحدة من حناجرهم تردد صداها طويلاً...

لكن، لكن، لكن.

1994/3/3

العناية الإلهية

لم يستطع أن يمنع دموع العرفان والسلام من الإنسكاب غزيرة من عينيه، حين أكد الطبيب أن الخطر قد زال تماماً، وبأنه يستطيع للحال أن يغادر المستشفى بعد أن قضى فيها تسعة أيام متأرجحاً بين الموت والحياة.

كان قلبه الذي أصيب باحتشاء منذ أيام، يجيش في تلك اللحظات بمشاعر رائعة هي مزيج من الفرح والامتنان والشكر للعناية الإلهية، والعناية المشددة التي لزمها تسعة أيام، لكنه لم يستطع أن يفصح عن مشاعره، مجرد كلمة شكر باهتة وواهنة انطلقت من حنجرته وهو يقول للطبيب: شكراً.

وقع الطبيب أوراق تخرجه من العناية المشددة القلبية، وكتب له وصفة طبية يلتزم بها مدى حياته، وحذره من الجهد والتدخين، بل لم يتورع عن تهديده بأن الإحتشاء في المرة القادمة –لا قدر الله– سيكون صاعقاً لا مجال لرده إن لم يلتزم بتعليماته حرفياً.

تركه الطبيب بعد أن قال له بلهجة اعتيادية: الحمد لله على سلامتك، واتجه إلى مريض آخر، امتدت يده إلى علبة المناديل الورقية، وسحب بيد مرتعشة منديلاً ليمسح دموع الشكر والفرح بأنه نجا، وتذكر منذ تسعة أيام كيف صرخ ملتاعاً من ألم صدري صاعق ومباغت فاجأه وهو يهم يلبس حذائه، كان وحيداً في البيت، فابنه وزوجته في عملهما، وحفيداه في المدرسة، وتمكن بجهد من فتح الباب، ولو لم تكن جارته أم سمير في طريقها إلى السوق وسمعته يصرخ، لما تمكن الجيران من نقله إلى المستشفى، بل كان في العالم الآخر...

غطته سحابة حزن بنفسجية وهو يتخيل كم كان قريباً من الموت، تنهد فيما يده تمسح دموعه وهي ترتعش: آه لقد كبرت، بعد أشهر سأدخل في الرابعة والسبعين، وحين حاول الابتسام طارداً سحابة الحزن، شاكراً العناية الإلهية والعناية المشددة على نجاته، هبطت سحابة الحزن بكامل ثقلها على صدره، وغاص قلبه الذي تموّت جزء كبير منه في ألم نفسي عظيم، تذكر ابنه وحل صمت ثقيل في روحه شبهه بالرصاص، وبقي لحظات طويلة بلا فكر، روحه مثقلة بجلال ألمٍ عظيم، فجأة رن صوت رقيق في أذنيه يتساءل: أتراه يحبني! وحاول أن يسخر من نفسه قائلاً: عيب يا رجل، كيف تشك بمحبة ابنك لك؟

وافتعل ضحكة انتهت بأن تقلص وجهه بألم، حقاً لا يمكن للإنسان أن يكذب مشاعره، قلبه المريض لا يخدعه بل يؤكد له بأن ابنه لا يحبه، وأنه كان ينتظر موته وآمن أن علة البشرية كونها تؤمن بالطواطم، وبمسلمات لا تناقشها، وبدت له رابطة الدم التي يتحدث عنها الناس أكبر وهم، وتذكر أيامه بتفاصيلها العادية وانسيابها الروتيني، لم تبد مرعبة كما بدت الآن، وهو على فراش مرضه بعد أن واجه الموت، وتساءل جزعاً: يا إلهي كيف يشع الرعب من شقوق يومه العادي؟ أتراه يبالغ، لكن ألا يأكل معهم، ويجلس بينهم يتابع برامج التلفاز؟ ماذا يطلب منهم أكثر؟ أيعتب على زوجة ابنه كونها لم تكلمه أبداً وطوال سنوات زواجها، لم تبادره يوماً بحديث، لكنها امرأة مكافحة تعمل خارج البيت ثماني ساعات، وتعود تنتظرها واجبات منزلية لا نهائية، لدرجة أنها تنسى تماماً وجود كهل عاطل عن العمل ولا لزوم له في بيتها، لكنه بيته. ألم يقدم لهما بيته يوم تزوجا، وترك لهما غرفته المشمسة الواسعة لتكون عش حبهما، وانزوى في غرفة صغيرة أشبه بالسجن ليس فيها نافذة يطل من خلالها على العالم في الخارج... وتذكر يوم تمسح به ابنه كما تتمسح قطعة بصاحبها ورجاه أن يسجل البيت باسمه، وللحال وافق. آه كم يعصره الندم الآن، وتذكر المثل الشعبي، قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر.

فليعترف أنه ما كان يطلب شيئاً لنفسه، لم يهتم أبداً لما يأكل، وكان يبتسم راضياً وهو يلاحظ زوجة ابنه كيف

تخصص حصص اللحم الكبيرة لولديها وزوجها، ولا تضع في صحته إلا فتات اللحم، متظاهرة أنها تسكب الطعام بهذه الطريقة بالمصادفة، في أعماقه كان راضياً ويقول بصوت مفعم بالحنان: ألف صحة على قلوبكم يا أحبائي...

لم يكن لمشاعره أن تُجرح حين كان ابنه أو زوجته يطلبان إليه أن يأوي إلى غرفته باكراً لأن ضيوفاً سيزورونهما. كان يحاول أن يعذرهما بأن وجود كهل مثله غير مرغوب فيه في وسط الشباب، وحين داهمته زوجة ابنه ذات يوم حاملة أكياساً ممتلئة أغراضاً متنوعة، لم يمتعض، وهو يراها تكدسها في غرفته الضيقة دون أن تستأذنه قائلة بلهجة جافة: لا مكان لدينا.

أحس يومها أن هذه الأغراض تخنقه، لكنه لم يعلق بكلمة.

كان يحتمل كل شيء برضى وهو يراهم بصحة جيدة وسعداء، لكنه كان يشتهي بين وقت وآخر لو يسمع كلمة حنان أوحب تنطلق من حناجرهم الحجرية، عبثاً تذكر دموع شيخوخته كيف كانت تفاجؤه في عزلته وهو يؤكد لنفسه بأن الكهل لا يحتاج الحنان.

وتذكر يوم زجره ابنه عن تقبيل حفيده، متهماً إياه أنه السبب في إصابة الصغير بالأنفلونزا الحادة، حين هم بالدفاع عن نفسه، لم يستطع أن يقول سوى كلمة انطلقت

حزينة منكسرة: أنا؟! ومن يومها نُهي بطريقة غير مباشرة عن تقبيل الصغيرين.

كانت تسليته الوحيدة الجلوس في المقهى الشعبي يلعب الورق مع رفاقه، يشكون بعضهم لبعض غذر الزمان والأولاد لكن ابنه فاجأه ذات يوم بأنه ما عاد قادراً على مصروفه في مقهى الرصيف، وبأن ضغوطاً مادية قاهرة تسحقه و...

لم يقل شيئاً، بل تحوّل إلى قوقعته يلاعب نفسه كل يوم بالورق، ويأوي باكراً إلى فراشه يعارك ساعات الأرق طويلاً حتى ينجده النوم.

وحين نقل إلى المشفى، لم يزره ابنه وكنته إلا مساءً، كم يستعيد وجهاهما الآن بوضوح، يا لفظاعة القسوة المتشربة في قسماتهما، صحيح أنهما قالا له: سلامتك، إن شاء الله تشفى، لكنه أحس أن كلامهما لا يخرج من القلب أبداً، بل مجرد رذاذ شفاه.

مرت ممرضة بجانبه قاطعة عالم تخيلاته الحزينة، وسألته: عمو، متى سيأتي أولادك ليخرجوك من المشفى؟

قال: اليوم.

سألت: في أي وقت؟ السرير يلزمنا يا عمو، دوماً هناك مرضى بالقلب.

قال: حسناً، هل يمكنك الاتصال بابني في عمله، سأعطيك الرقم؟

قالت: بالتأكيد، سأتصل به.

أحس بلهجة التعاطف الإنساني في صوتها، سألها عن اسمها: قالت: سامية.

كان بحاجة أن يردد اسماً بشرياً، ردد في سره اسمها مراراً، لكأنه يقاوم به صقيع وحدته وعزلته المديدة، بدت له رقيقة ولطيفة، وربما عاشقة، وحين عادت لتخبره بأن ابنه سيمر لاصطحابه بعد انتهاء دوامه، نظر إلى أصابعها باحثاً عن خاتم خطوبة، لكنه لم يجد..

سألته: هل تناولت فطورك؟

قال: أجل، أكلت بيضة مسلوقة، وقليلاً من اللبنة.

ابتسمت قائلة: ألف صحة، ما رأيك بفنجان قهوة..

انهمرت دموعه مباغتة وغزيرة، ودّ لو يضمها بكل الحنان المقموع في نفسه، فاجأتها دموعه، اعتقدت أنه خائف، قالت تطمئنه:

-لا تخف يا عمو، لقد زال الخطر، ألم يطمئنك الطبيب؟

وامتدت يدها بشاشة مطوية سحبتها من جيب الروب الأبيض الناصع الذي تلبسه، ومسحت دموعه، تنهد بعمق، آه منذ دهر لم تمسه يد بشرية، بهذا الحنان، أعطته

الشاشة، فاستلمها بيد مرتجفة، قالت له: حسناً سأرجع بعد قليل بالقهوة، آه على فكرة، كيف تشربها.

قال بصوت اجتهد أن يكون عادياً: دون سكر.

كانت عاصفة دموعه في أوجها، وأخذ قلبه يختلج بمشاعر شتى، لن أعود، لن أرجع إلى البيت، حيث يسكن قساة القلوب، يا لفظاعة قسوتهم، لكن أين عساني أمضي؟ ألم يُجرد من كل ضمان لشيخوخته بعد أن وهبهم بيته؟

وآمن في تلك اللحظة وهو يستعيد وجهي ابنه وكنته أنهما كانا ينتظران موته وأنه سمعهما مراراً يتحدثان أمامه بأن غرفته ستؤول بعد وفاته إلى غرفة مكتب يدرس فيها الأولاد، وكان يغض الطرف فيما يبلع الإهانة ببسمة بلهاء.

عادت الممرضة تحمل فنجاني قهوة، تنشق الرائحة الشهية، ورشف رشفة طويلة قائلاً: لم أذق أطيب من هذه القهوة في حياتي.

ضحكت كاشفة عن أسنان منضدة.. بيضاء رائعة قائلة: شكراً على المجاملة.

قال: صدقيني، لا اجاملك.

قالت: ألف صحة.

قال: ما ألطفك، أتعرفين، منذ سنوات لم يقل لي أحد ألف صحة.

سألته: لماذا؟

ضحك ولم يجب، سألها: هل أنت مخطوبة؟

أربكها سؤاله، قالت: قريباً إن شاء الله.

قال لها: محظوظ الشاب الذي سيتزوجك.

تورد وجهها قائلة: حقاً؟

قال: بالتاكيد.

لمح سحابة حزن طافت فوق وجهها سألها: ثمة شيء يشغل بالك؟

قالت متنهدة: لا أبداً.

قال: اعتبريني والدك، لماذا أحسستك منذ لحظة حزينة؟

رنت إليه بعينين صافيتين وقالت: بصراحة يا عمو الحياة صعبة، أقصد المادة تلعب دوراً أساسياً في حياتنا.

سألها: أتعانين ضغوطاً مادية؟

قالت: ومن لا يعاني؟

برقت بذهنه فكرة كالومض، قرر تنفيذها للحال، وضع فنجان قهوته جانباً ونزع خاتم زواجه الذهبي العريض والوحيد الذي يملكه، قال لها برجاء:

-لا ترفضي رغبة أخيرة لرجل وحيد، اقبلي مني هذا الخاتم، ومده إليها بيد مرتعشة.

حملقت اليه فيه دهشة وقالت : لكن، ما المناسبة؟

قال بلهجة فيها رجاء: لا ترفضي رغبة رجل وحيد، قلبه معطوب من نقص الحب.

ابتسمت قائلة: تعبير جميل، هل قلبك معطوب من نقص الحب؟

قال: أجل.

تفحصت الخاتم، بدت سعيدة، رازته بيدها وضحكت قائلة: أظنه يساوي الكثير، ولكن؟!

قال: أرجوك لا تعلقي بكلمة.

سألت: لكني لم أفهم المناسبة.

قال مازحاً: لأنك قلت لي ألف صحة.

ضحكت قائلة: روحك مرحة حقاً.

دمعت عيناها تأثراً، شدت على يده قائلة: أشكرك، ابتسمت وهي تقول: أتعرف: هذا الخاتم يمكن أن يصير خاتمين.

قال: هذا ما أتمناه.

ناداها الطبيب، فلبت مسرعة، عاد يغرق في ذكرياته التي تداخلت وغامت في رؤية ضبابية من التعب، بعد قليل سيأتي ابنه ليصحبه، سيقرأ خيبة الأمل على وجهه كونه نجا من الاحتشاء، وسيتأجل تحويل غرفته إلى غرفة مكتب للأولاد.

بحث بعينيه المتعبتين الدامعتين عن حل، عن يمينه ويساره مرضى قلوبهم تموت من نقص الحب... تجولت عيناه في المكان حوله، حتى استقرت نظرته فوق لافتة كتب عليها بخط أسود عريض وأنيق: العناية المشددة ابتسم في سره وقال: الأصح أن يكتبوا العناية الإلهية.

الفول يغلب كل المأكولات اللذيذة

لم تستطع أن تتخذ قرارها، رغم أنه أمهلها أسبوعاً "آخر بناء على طلبها. كانت متدثرة بمعطفها طويل العمر الذي تحسه موجوداً منذ الأزل، وقد تقوست كتفاها من البرد، وتنكس رأسها بينهما، وتساءلت: عجباً" لماذا لا يدفئون مقاهي البحر جيداً"؟ إنها ملجؤها الوحيد، تقصدها دوماً" كلما واجهتها محنة، ضحكت ساخرة من نفسها: ما أكثر المحن التي واجهتك يا روضة.

تنهدت بعمق معترفة بأنها –وفي كل مرة– تحس بصفاء ذهني ويتبدد توترها بعد أن تجلس ساعات في مقاهي البحر، فما بالها هذه المرة يزداد ذهنها "تغيماً" كلما مر الوقت، رغم أن نظرها يداعب أمواج البحر منذ أكثر من ساعة، ويطلب بالحاح مشورته، لكنها أحست أن البحر يخاصمها، ولا يريدها صديقة. ترى لماذا؟ إنها لم تخنه يوماً"، ولم تفضل عليه أحداً"، ظل حبها له أصيلاً"، لم يعرف الفتور ولا الخيانة.

أغمضت عينيها إعياء" وهي تعي الواقع المر والبشع للكلمتين الأخيرتين، طافت صورتها بذهنها فاترة وبعيدة

ضحكت ساخرة وهي تحس أن صورة الخطيب الأول مرتسمة في عينها اليمنى، وصورة الخطيب الثاني مرتسمة في عينها اليسرى.

تنهدت بعمق، وفتحت عينيها، فضاعت صورة الخطيبين، توقف نظرها عند الموج الذي يعلو ويتحول لزبد ويتلاشى على صخور الشاطئ، أوه هكذا الزمن، إنه مجرد زبد، وتساءلت ساخرة بمرارة: ماذا بقي من الخطيبين، ومن الحب، والألم والحلم والخيبة، والانتظار، والمفاجآت و... مجرد زبد، وما حياة الإنسان سوى موجة تنتهي بزبد.

كانت تتأمل بإعجاب رجلاً" في مايوه السباحة يقوم بتمرينات رياضة رشيقة غير آبه بالبرد القاسي، ويقف على صخرة ممتدة كاللسان في البحر.

أحست بخجل وهي منكمشة ومتقوقعة في معطفها، وتساءلت: عجباً كيف لا يبرد؟ أعجبها لونه البرونزي وتناسق عضلاته، كانت نظرتها تغازله وهي تقول: يا لك من رجل جميل، وخطر لها لو تسأله مداعبة: أيهما أحب إلى قلبه المرأة أم الرياضة؟! لكن مزاجها العابث أزعجها وارتفع صوت من داخلها يؤنبها قائلاً: ما بك عابثة هكذا! ولا مبالية، لكأنك ناسية أنه سيأتي بعد قليل ليسمع جوابك النهائي.

تململت في معطفها السميك قائلة بتعب: لكني لم أتخذ القرار بعد، لم أستطع أن أتخذه، لم تفدني المدة الزائدة التي

طلبتها للتفكير، يا إلهي كيف يتخذ الإنسان قراره، وأعقبت بعد لحظة –المصيري–

حاولت أن تساعد نفسها وأن تزيح الضباب من خيالها: لا بأس يا روضة لنتابع القصة منذ بدايتها، أهم شيء الإمساك بطرف الخيط، بلحظة البداية، هكذا يمكنك الوصول إلى حل.

أشعلت سيجارة، ونفثت الدخان، لكأنها تقول: أية بداية؟! وما الذي جمعها به ليكون لهذا الشيء بداية ونهاية؟! لقد عرفته منذ شهر، كوسيط يساعدها لتتوظف في المصرف، ومن المرة الأولى التي وقع نظره فيها عليها، بعد أن قدمها له زوج صديقتها الذي يعمل عنده، سألها: ألست متزوجة؟

ردت بآلية مدارية امتعاضها: لا.

قال: عجباً، وجه بهذا الجمال والنضارة، وليست متزوجة!

امتصت امتعاضها، ولعنت سلطة ماله ونفوذه اللذين يعطيانه الحق في التدخل بحياتها بوقاحة، هي صاحبة الحاجة، في تلك اللحظة وعت بعمق ذل الحاجة. لكنه وعدها أنه سيوظفها في المصرف بإشارة منه.

وضحك كاشفاً عن لثة مهترئة، تساقطت أغلب أسنانها، قائلاً:

–وسنعفيك من دفع الإتاوات.

لقد حاولت على مدى سنوات أن توفق إلى وظيفة لكن دون جدوى، عادت صورة لثته المتورمة وقد تساقطت أغلب أسنانها تعكر خيالها، تساءلت: لماذا لا يصلح أسنانه؟ كانت أسنانه المتبقية كبيرة، أحستها أكثر صلابة من الأسنان العادية، بدت لها أسناناً من حجارة بينها أنفاق كبيرة يمكن أن يمر فيما بينها قطار، ضحكت: كم هو كريه، رجل مترهل: بدين قدرت أن وزنه أكثر من مئة وخمسين كيلو غراماً، وكانت كرشه من الانتفاخ لدرجة أحست أنها تتسع لثلاثة أطفال على الأقل بعمر السنة! ضحكت مجدداً ماذا لو يعرف كيف تفكر به؟

في اليوم الثاني حين راجعته مصطحبة أوراقها الرسمية، طلب لها القهوة وسألها ببساطة وهو يشعل سيجارة إن كانت تقبله زوجاً لها؟ ولم ينتظر ردها، أخذ ينفث الدخان دون أن ينظر إليها حتى، ويحكي لها عن تعاسته مع زوجته التي تكبره بسبع سنوات، وعن وحدته بعد أن زوج أولاده وعن إعجابه الشديد بها، وكيف دخلت قلبه مباشرة ودون اسئذان، ودت لو تقاطعه مصححة: الأفضل لو تقول إنني دخلت كرشك دون استئذان!

سمعت صوتاً ناحلاً يقاطعه ويسأل: لكن ما الذي أعجبك بي أنت لم ترني سوى دقائق؟!

ضحك كاشفاً عن لثته وأسنانه الحجرية، والأنفاق بينها، أحست بغثيان شديد يخبط معدتها، وكادت تتقيأ القهوة التي شربتها قال:

رجل في عمري خبير في الحياة وفي النساء، يعرف الصنف من أول نظرة ردت بقرف: الصنف؟!

قال: صنف النساء، أعرفه جيداً، لقد عرفت نساءً أكثر من عدد شعرات رأسك، أوه لا تنظري إلي الآن، كنت فيما مضى وسيماً وكريماً ما الذي تريده المرأة أكثر من ذلك!.

سألته: ولم لم تتزوج من قبل وأنت في ...

قاطعها: آه مراراً راودتني الفكرة، لكني كنت أخشى والدي رحمه الله كان يلزمني بزوجتي ابنة عمتي، وتردد قائلاً، لا أخفيك، هناك مصالح كثيرة في زواجي منها، انها شريكتي في كل مشاريعي التجارية.

لم تستطع أن تتخيل أن هرقلاً ذا النفوذ، يخاف من والده، ضحكت ساخرة وسألته: والآن ألم تعد تخاف؟

قال باسماً: الآن رحمه الله.

أخذ يحدثها عن أملاكه وثرواته، وأكد لها انه مستعد لكل شروطها، وان مقدمها سيكون الشاليه الفخمة التي يملكها، ومؤخرها تحدده هي، ولو طلبت الملايين يوافق، وأخرج دفتر شيكاته من جيبه وتنهد نافخاً كرشه بالهواء قائلاً: اطلبي.

أحست بدهشة جعلتها خرساء، هل ما يمر أمامها حقيقة أم خيال. من هذا الرجل الذي يعرض عليها ملايينه لتتزوجه، آه إنها عاجزة عن فهمه، ما الذي يجده فيها؟ وما هي سوى فتاة بلا حظ، في الرابعة والثلاثين من عمرها، فقيرة ومسكينة، كل طموحها أن تتوظف، وجدت نفسها تسأله: ترى ما الذي أعجبك بي؟ قال مؤكداً: أنت فتاة أحلامي.

انفجرت بنوبة من الضحك مترافقة بغثيان، أيعقل أن تكون أحلام رجل في السبعين، فتاة في الرابعة والثلاثين، متدفقة أنوثة وحيوية، أيعقل أن تكون شهيته للحياة متفتحة لهذه الدرجة، أطرقت وهي تتساءل بخجل: ترى هل يقدر كهل مترهل مثله أن يضاجع امرأة؟! عجباً كيف يلح على الزواج من فتاة في عمر أحفاده أنقذها من تفكيرها وأعادها إلى أرض الواقع اللاواقعية قائلاً: أرجوك فكري، لا تنسي أنني أريدك في الحلال. عاد الغثيان أقوى من الأول، حال سماعها كلمة حلال، ولم تحس باشمئزاز حاد ومباغت كما أحست وهو يقول كلمة حلال.

غادرت مكتبه وذهنها محاصر، ومشلول تحت تأثير هذه الكلمة، وبدت لها تلك الزيجات –الحلال– التي تربط بين رجال أثرياء وكهول وفتيات فقيرات، هي العهر مجسداً، لكنها تصير حلالاً بورقة !! بمجرد ورقة!

انتفض جسدها كأنه يعاني من ثقل أغلال حقيقية... أوه لا هذا هو الحرام عينه.

لكنها وجدت نفسها أسيرة عرضه، في ذلك المساء كانت أنظارها مصوبة صوب بسام، أخيها الصغير الأحب إلى قلبها، طفل التاسعة المحروم من ألف شيء وشيء، وجدت نفسها تجلسه في حضنها وتدفن رأسها في صدره وتتحسس عظام قفصه الصدري وتسأله وهي تقاوم ارتجاف صوتها المؤذن بالبكاء: -بسام، احك، احك لي عن أي شيء.

ضحك قائلاً: ماذا سأقول؟

قالت: أي شيء، احك لي قصة.

رد ضاحكاً: أنت من تحكي لي القصص.

قالت وهي تلصقه بها أكثر وتتشممه: احك أنت، أخبرني ماذا تريد أن تصير في المستقبل.

قال: طبيباً.

ضحكت قائلة: كل الأولاد يحبون أن يصيروا إما أطباء أو مهندسين إنها رغبات الأهل وليست رغباتهم.

كانت تسمع صوته فيما رأسها مدفون في صدره، وذراعاها تطوقان خصره، قالت وهي تخاطبه وكأنها تحدث نفسها: لكن الطبيب يحتاج إلى عيادة، والعيادة تكلف الملايين يا بسام.

قال: سأعمل وأشتري عيادة.

ضحكت، ضحكت طويلاً، ناهية ضحكتها بنوبة بكاء صامت، دون أن ترتجف عضلة في جسمها، فقط دموع حارة، كاوية، يا للوعة، نار اللوعة حارقة..

في حضن الصغير يتيم الأب أرادت أن تفكر بزواجها من الكهل الثري، الرجل المهترئ العتيق صاحب الملايين، كان الجواب دموعاً حارقه، وفي اليومين التاليين لعرضه، أحست أن ما سمعته منه مجرد تخريف أو ترهات، لكنه فاجأها بصندوق من الهدايا، وتوسل إليها أن تسمح له بمقابلة أخيها الأكبر وأمها، ليطلبها رسمياً "للزواج لكنها، وجدت نفسها ترجوه وهي غارقة في دوار الحيرة أن يسمح لها بأن تعرفه أكثر. قالت له متوترة: نحن نجهل بعضنا تماماً".

قال ستعرفينني بعد الزواج، أنا طيب وكريم، اسألي عني في السوق، أنا.

قاطعته: أعرف بأنك أغنى تاجر في المدينة، وبأنك بنيت جامعاً كتبرع.

ابتسم راق له جوابها، كان قد تبرع ببناء جامع، مقدماً أحسن قطعة أرض بين أملاكه لتشييد الجامع.

قال مختالاً من السرور: المهم أن يرضى الله عني.

أرادت أن تسأله: هل تعتقد أن الله يرضى عن زواجي منك؟

لكنها سكتت، كان صندوقاً مليئاً بالفاكهة والحلوى وأنواع اللحوم ينتظرها في سيارته الفارهة، التي لم تر بفخامتها أبداً، وحين جلست في المقعد الخلفي ليوصلها السائق إلى بيتها احتاجت لعدة محاولات لتتمكن من إغلاق باب السيارة الحديدي الفخم، كانت غارقة في المقعد الوثير، ورائحة الجلد الطبيعي الذي يغلف المقاعد تغمرها.

في ذهول وحدتها حاولت أن تفكر فيه، لكنها أبداً لم تستطع أن تختلي به في خيالها بأوضاع عاطفية، كل مرة كان خيالها يفر هارباً من صورهما، تقزز فظيع تحسه، وهي تتخيله عارياً بكرشه المتورمة ولثته المهترئة وبقايا أسنانه الحجرية. تذكرت حين كانت صغيرة كيف كانت تقول بقوة: تفوه، على كل شيء تقرفه، عاودتها هذه الكلمة الطفولية مجدداً بعد نسيان سنوات، تفو عليه رجلاً مهترئاً... لكن حين تفكر بحياتها وحياة أسرتها، تحس أنها مبهورة الأنفاس، ستمسهم عصا سحرية بالتأكيد بزواجها من الكرش العارم ولن تحل مشاكلهم المادية فحسب بل سيصيرون من أصحاب الملايين، وتذكرت كيف قال لها إنه مستعد لدفع نصف أملاكه مقابل لحظات سعيدة معها وإنه سيعيش على الأكثر بضع سنوات ثم سيغادر إلى قبره،

وكل ما يتمناه أن يعوض ويستمتع ما باستطاعة رجل في السبعين أن يستمتع به!

وهي لحسن الحظ، أو لسوئه، جسدت له المتع كلها، فلم لا توافق؟

ستعيش معه سنوات، سترث الملايين، وسيموت – ضحكت: ما الحياة سوى فيلم– لكن أوه كيف ستتزوج رجلاً مهترئاً في السبعين مقرفاً هكذا!! وتساءلت كيف تستطيع الفتيات الزواج برجال كهول يكبروهن كثيراً؟! ترى الأ يقرفن؟ وأكدت لنفسها أن الخيانات الزوجية تعشش حتماً في هذه الزيجات.

أمام البهجة التي عمت البيت بصندوق الهدايا، تراخت، أحست أن عقلها قابل أن يعجز ويتأقلم مع الواقع وأن عليها أن تفكر به جدياً كزوج، فكرت أن تستشير أمها وصديقاتها، لكنها أحست أن الموضوع يعنيها تحديداً ولن تفيدها نصائح المقربين.

وجدت أن الحل الأمثل أن تعاشره قليلاً، أن تتعرف إليه عساها تستسيغه عساها تتآلف مع أنفاق أسنانه، وترهل كرشه وكهولته، أسعده اقتراحها أن يتعرفا ببعضهما عن كثب، لكنها وقعت بذهول أكبر وهي تتفرج عن كثب على شخصيته، كم هو هزيل وتافه وغبي، حكى لها عن عشيقاته اللاتي حولتهن حبوب منع الحمل إلى مجنونات من العصبية، وحكى لها عن أملاكه الواسعة التي ورثها

عن والده، واستفاض في وصف كرمه وعن حقائب الهدايا التي أحضرها للجيران والأهل حين سافر إلى الحج . حاولت جاهدة وهي تصغي اليه أن تجد شيئاً من الظرف في حديثه، شيئاً من المعنى الجميل، لكن ما أحسته بعد أسبوع من الضغط على أعصابها في الاستماع إليه أنه أبله حقيقي دون مبالغة، وتساءلت بعمق روحها: كيف تتجمع الأموال في أيدي بلهاء من أمثاله؟ وأثارها هذا السؤال لدرجة تمنت لو تكتب للصحف ولأصحاب الفكر ليفسروا لها كيف تتجمع الأموال في أيدي بلهاء وحمير؟!

بعد أسبوع كان متلهفاً لمعرفة جوابها، ورغم تضاعف اشمئزازها منه، الا أنها لم تستطع أن تجزم بشأنهما، طلبت أسبوعاً آخر للتفكير، هذه المرة من دون أن يلتقيا، ولماذا تلقاه، وقد اكتشفته أبله. السؤال المحدد الآن: هل تقبل عرضه أم لا.

الأسبوع الثاني كان أشد ألماً، سمته أسبوع إنعاش الآلام القديمة أو أسبوع المواجهة مع الذات، تذكرت أحلامها المجهضة، والآمال التي لم يتحقق منها شيء، لتعترف أنها ما عادت صغيرة، وأن فتاة في الرابعة والثلاثين تعتبر عانساً وعليها أن تركض وتلهث لتلحق بقطار الزواج. والخطيب الأول فسخت خطوبتها عنه رغم الحب المديد سنوات الجامعة، لأن الفقر كان من القوة والإلحاح لدرجة لم يقبل أن يتنحى أبداً ليترك لهما ثقباً يتنفسان منه

ويعيشان بالحد الأدنى من الكرامة البشرية. تخرجا من الجامعة، هي تبحث عن وظيفة لم تجدها، وهو تنتظره الجندية والجيوب الخاوية، اختنق الحب ذوى رويداً رويداً حتى تحول إلى وردة لاأمل باعادتها إلى الحياة. الخطيب الثاني شاب جامعي، له امتياز أنه حصل على وظيفة وهي بدورها تمكنت من العمل براتب هزيل عند محام، كسكرتيرة، وقبلت على مضض أن تكون خادمة تكنس الأرض وتمسحها، وتقدم القهوة والشاي لزبائنه، كانا يختنقان من ذل الحاجة وهما يوفران أقصى ما يستطيعان من رواتبهما ليتزوجا. لا تنكر أنها أحبته، بقوة يأسها أحبته، خلقت مشاعر حبها له، كمن يود عامداً أن يخلق شيئاً جميلاً في حياته، وتمكنا بعد ثلاث سنوات من الخطوبة من استئجار بيت صغير في أطراف المدينة وشراء براد وغسالة، وعدة كراسي بالقروض التي غرقا فيها، كان يمكن أن يتزوجها لولا أنها صحت ذات يوم على فضيحة زلزلت الحارة، بل المدينة التي يعيشان فيها، إذا اكتشفت أنه على علاقة مع أرملة تكبره بتسع سنوات ومنذ ثلاث سنوات، وأنها حملت، وقصدا طبيباً نسائياً ليجري لها عملية الإجهاض في عيادته الخاصة، وفي العيادة وفي ظل التوتر والخوف والممنوعات انثقب رحم الأرملة، وغابت في صدمة خطيرة وتطلب الإختلاط نقلها إلى المشفى لإسعافها، حين واجهته مذهولة وسألته بصوت ميت في الألم: أكنت تخونني ثلاث سنوات؟

قال ببرود وهو ينظر نظرة قاسية: أنا رجل، واحتاج للجنس، ولا يمكنني أن أقيم علاقة مع خطيبتي قبل الزواج.

وحين همت أن تصرخ أو ترد عليه، تخثرت الكلمات على شفتيها.

حاولوا تعزيتها: الحمد لله لم تتزوجيه، الله نجاك منه، رجل خائن لا يستحقك...

لكنها وجدت نفسها وحيدة في الرابعة والثلاثين تجر خيبات مرة لا تعرف كيف تتحرر من آثارها الجانبية...

تمطت في جلستها الأبدية، كان الرجل الرياضي قد أنهى تدريباته، وألقى بجسده في بحر كانون، وأخذ يسبح بنشاط، وجدت نفسها تقارنه بالخطيب السبعيني وتضحك متسائلة: ماذا لو أجمع بين رجل يملك شباب هذا الرجل الرياضي وثروة ذلك الكهل؟ ترى ماذا عساي أقول له، هل أطلب إليه أن يمهلني أسبوعاً آخر، وتخيلت نفسها تطلب إليه أن يمدد لها مدة التفكير أسبوعا بعد أسبوع حتى يموت.

ضحكت بصوت عال، إذ راقت لها الفكرة، وتخيلتها وقد تحولت إلى فيلم سينمائي كوميدي، لم تنتبه له يقف قبالتها يجر كرسياً مفسحاً مجالاً لكرشه بالتنفس دون أن يصطدم بحرف الطاولة. قال بصوتٍ أثار قرفها:

حبيبتي وصلت قبلي. ونظر في ساعته، تأملت بقع الشيخوخة البنية تفرش ظهر يده المجعد، نظرت إليه من خلال نظارتها الشمسية: يا إلهي كم هو كهل ومهترئ، كبتت ضحكتها الساخرة وهي تتساءل: كيف يرغب هذا الرجل بالزواج من صبية مثلي؟ أتراه مجنوناً، أم خرفاً، أم أن سلطة المال تعطيه الإحساس أن كل شيء يمكن أن يحققه.

صفق بيديه، فهرع نادلان وقفا بإجلال أمام غباء حضرته، قال لهما: أحضرا كل ما عندكما من مقبلات فاخرة، انحنيا بطاعة، فانصرفا مهرولين، كانت تحس بجوع، فالبحر يفتح شهيتها للطعام دوماً، أدارت وجهها صوب البحر باحثة عن الرجل الرياضي، كان قد غدا نقطة تتحرك بعيداً بين أمواج البحر، تنهدت عميقاً، أوه ليتها معه، ليتها تملك الجرأة لتقذف بنفسها في الماء المثلج وتسبح بعيداً، لتصل إلى دنيا من سعادة لا تحتاج إلى وساطات أو انكسارات! آه ماذا عساني أقول له، من حقه أن يعرف الرد، هل أتزوجه أم لا؟ ترى كيف يقرر البشر؟!

سمعت صوته يسال مستعجلاً الجواب: إيه، ألم تقرر حبيبتي بعد؟

ضحكت وقالت: حقاً ستعطيني كل ما أطلبه؟

قال جربيني، اطلبي، فألبي.

تساءلت: ماذا عساني أمثل له؟ هل أنا الشباب الذي ضاع منه، هل يود أن يتمرد متأخراً على سلطة والده، إنه ينتظر الجواب، يا إلهي. لم تحس أن النعم واللا متصادقتان ومتماثلتان كما تحسهما الآن، إنها تستطيع أن تقول له حالاً نعم، وبنفس الوقت تقول لا، في الحالتين، هي هي، مندهشة خائبة، لم تقرر، وهو ينتظر الجواب. خطر لها لو تقسم ورقة نصفين، وتكتب في الأول نعم، وفي الأخر لا. وستجري القرعة، وعلى ضوئها تقرر حياتها.

أسرع النادلان يملآن الطاولة بثلاثين صحناً من أشهر المقبلات، ربت على يدها لتهم بالأكل، أقشعر بدنها، أمسكت السكين، صدمتها برودة المعدن، تأملته يلتهم الطعام كوحش صائم منذ أيام، وأصابعه تتنقل بخفة بين الصحون. تطاير رذاذ الطعام من فجوات أسنانه، مد يده إلى صحن الحمص وقد فرش صحنه بالصنوبر واللحم المفروم، وقال لها: كلي، كلي... وغرف من الصحن لقمة كبيرة ودسها في فمه، تجمعت مفرزات بيضاء على زاويتي فمه، كان معدن السكين البارد يبث طاقات شيطانية في راحة يدها، تخيلت أنها تقرب النصل من كرشه وتضغط، ستثقب كرشه الهائلة وسيتدفق منها المال، أوراق نقدية لا تعد ولا تحصى.

كانت تبتسم بوجهه ببلاهة، عليها أن تقول نعم أو لا، تململت متسائلة: يا إلهي ليس من السهل أن يرفض

الإنسان الملايين، وماذا لو احتملته مقابل مستقبلي ومستقبل أخوتي! بحثت بعينها عن السباح، أحست بخيبة كونه اختفى، أين هو؟ لكأنه سيساعدها على اتخاذ قرارها. تنهدت متعبة، متعبة حتى النخاع، بحثت في المكان الواسع حولها عن معين يساعدها على اتخاذ قرارها، فلم تجد من بعيد خارج المقهى كان بائع الفول المسلوق يدفء يديه فوق البخار المتصاعد من القدر. رتب حول القدر المعدني علباً بلاستيكية من الملح والفلفل وملح الليمون، والسماق، أمكنها أن تميز أن بائع الفول يغني، وأن قبعته الصوفية المهترئة تتمايل طرباً مع صوته، أحسته يملك البحر والصخور والدنيا كلها، فجأة انتفضت واقفة، حملت حقيبة يدها وفرت كالهاربة وهي تقول بصوت عالٍ للكهل المنهمك بابتلاع الطعام: لا، لا، لن أتزوجك. صعدت درجات المقهى قافزة بقوة عجيبة أحستها تتفجر في ساقيها، أسرعت إلى بائع الفول، أعطته عشر ليرات، فملأ لها صحناً ورقياً من الفول المسلوق، ورش فوقه الأبيض والعنابي والأصفر، وكانت تحس بسعادة من نوع خاص، تشبه سعادتها حين كانت تتماثل للشفاء بعد هجمة مرض حادة، آه، يا للسعادة إنها لا تزال قادرة على الابتسام على الغناء، ومن بعيد بدا لها الرجل الكهل كجذع شجرة ضخم مقطوع وملقى بإهمال...

ضحكت وهي تحس بسعادة من سريان دفء الفول إلى راحتها، تذوقت طعمه اللذيذ، غمزت الكرش الهائلة

وثلاثين صحناً من المازوات وهي تقول بصوت ضاحك مفعماً بالحيوية: الفول يغلب.

مجرد موضوع تعبير

وقفتْ مدّرسة اللغة العربية الشابة، المبتسمة دوماً قرب طرف المنصة في الصف السادس، وخاطبت الطالبات بصوتها البشوش الواثق قائلة: انتن الآن صبايا، تدركن وتفهمن جيداً، أريد لذهنكن أن يكون حراً، ولخيالكن أن يحلق بلا حدود، يبتدعُ صوراً، ويعبرّ عن أحاسيسكن، بصراحة. لا أريد أن تكون دروس التعبير تقليدية، كأن يكون الموضوع عن يوم افتتاح المدرسة، أو يوم إغلاقها، أو عن عيد الأم، أو رسالة لصديقة في الغربة، أو رحلة مدرسية، أو وصف إحساسكن بقدوم الربيع. تبدأ أغلب المواضيع بجملة: استيقظت على زقزقة العصافير...

ضج الصف بالضحك، وتعالت صيحات من أكثر من حنجرة: معك حق يا آنسة...

انتظرت المدّرسة الشابة توقف الطالبات عن الضحك، بدت راضية كون تلقائيتها حرضت تجاوبهن معها، كانت تسعى لخلق روح في مناهج التدريس، ولترسيخ علاقة متينة بينها وبين الطالبات.

صفقت مرتين كي يعود الصف إلى انضباطه، وتابعت: الموضوع هذه المرة طريف، أريد من كل واحدة منكن أن تصف لي حادثة أو مفاجأة، تحديداً طُرفة حصلت بينها وبين والدها، بالتأكيد كل واحدة منكن ستتذكر عشرات الحوادث، لكن المطلوب وصف حادثة واحدة وأثرها المحبب والعميق في الذاكرة، اتسعت ابتسامة المدرسة قائلة: يجب أن يأخذ الأب حصته في مواضيع التعبير..

علت همهمات الرضى والسرور من حناجر الطالبات، كتبت المدرسة على اللوح الأخضر نص الموضوع:

وصف حادثة أو طرفة وقعت بينك وبين والدك بما لا يزيد عن عشرين سطراً.

كتبت الفتيات في دفاترهن نص الموضوع، ما عدا هيفاء التي انقضّ عليها نصّ الموضوع كالصاعقة، فأحسّت أن قلبها يهوي في حضنها، ثم يسقط على الأرض ككرة لحمية تنزف دماً، والتهب وجهها فجأة بحرارة لاذعة، وتعرقت راحتا يديها بغزارة حتى كاد القلم ينزلق من بين أصابعها لولا أنها ضغطت عليه بقوة، وأخذت حالة من التهيج الشديد تنتابها عجزت عن فهمها والسيطرة عليها.

كانت هيفاء في العاشرة من عمرها، متفوقة في دراستها، ومحط تقدير مدرساتها، ومحبة صديقاتها، كل شيء فيها كان جميلاً ولطيفاً ومكللاً بالنجاح، وكان

حضورها الطفولي العذب ينشر عبقة أينما حلّت، فما بالها تتبلبل هكذا من مجرد موضوع تعبير!

أخذت أنفاس الطالبات تضغط على روحها حتى تكاد تسحقها، ما عادت قادرة على تحمّل صوت المدّرسة الذي أصبحت عذوبته تتحول إلى سياط إبرية تخدش أذنيها، همت بالقيام. ستفتح الباب وتفر، ستخرج بأية طريقة، ما عاد بإمكانها البقاء ولا الجلوس، ولا حتى التنفس، وجدت نفسها تقوم عن مقعدها، تسير باتجاه الآنسة وتهمس في أذنها بأنها تود الخروج لقضاء حاجة.

أذنت المدرسة لهيفاء بالخروج، دون أن يخطر ببالها أنها عكرّت سلام طفلة، وأحدثت في روحها صدوعاً وشروخاً عميقة، وبأنها فتحت ندبات جروح عمرها عشر سنوات، اعتقدت طفلة نضرة مثل هيفاء أنها نسيتها.

ما إن أغلقت هيفاء باب الصف وراءها، حتى أخذت أنفاسها تتسارع بقوة، وأحست أنها على وشك الاختناق. كان الهواء يتوقف في منتصف صدرها، عبرت نظرتها الممر الطويل الرمادي المغبر بين الصفوف، لأول مرة تحس بكآبته، اندلقت الدموع من عينيها السوداوين الواسعتين، امتدت يدها إلى جيب صدارتها الكاكية اللون لتخرج منديلاً ورقياً، لكنها لم تعثر للأسف على أي منديل، اضطرت أن تمسح دموعها بظاهر كفيها الطريين، واضطرها أنفها الذي يسيل بدوره أن تتمخط بكم صدارتها.

نزلت الباحة الخالية، نظرت إلى ساعتها، قالت في نفسها: بعد ربع ساعة تنتهي الحصة، وسينزل الطلاب إلى الباحة. تأملت أرض الباحة المفروشة بأوراق ومناديل ورقية، وأكياس نايلون ملونة، لأول مرة أيضاً تحس بشناعة المنظر، ومن خلال دموعها الطافحة بغزارة من عينيها، تفتق في نفسها الطفولية إحساس عميق يؤكد لها أن أرض الباحة تشبه بشكل ما أيامها، ترى ما وجه الشبه، وكيف انسلت إليها هذه الفكرة؟ أو تفتقت من روحها، لا تعرف. اتجهت إلى الحائط الذي يحمل أكثر من عشرة صنابير مياه أغلبها مفتوح، يصب الماء في حوض نمت في قاعه أعشاب خضراء وطحالب...

وجدت هيفاء نفسها تغلق صنابير المياه ما عدا واحداً، أخذت ترشق وجهها بالماء البارد. تمددت دموعها بالماء، أنعشتها البرودة وهدأت روحها المتعكرة، أحست أن الهواء وصل إلى آخر نقطة في رئتيها... تمخطت وغسلت أنفها، لكن دموعها لم تكف عن الانسكاب، كانت تعجز عن تحليل ما يعتمل في داخلها، تقززت نفسها من رائحة العفن التي تفوح من الأعشاب النابتة في قلب حوض المياه، حملقت طويلاً إلى ذلك الخضار العفن، فوجدت أنه يأخذ أشكالاً ورسوماً وحروفاً، أمكنها أن تميز كلمة واضحة لا يمكن أن يخطئ بها أحد... مكتوبة بالعشب العفن: بابا.

لأول مرة تشعر هيفاء بشعور التخلي والنبذ، باغتتها تلك المشاعر القاسية، الغريبة، تساءلت وهي تحكم ربط شعرها: أتراني صرت كبيرة؟ لماذا ارتبط بذهنها الألم بالكبر؟ أليس وعينا للألم دليل على أننا نكبر ونغادر الطفولة، كانت ابنة عشر السنوات وحيدة في الباحة تواجه بقسوة موضوع تعبير موضوعه الأب...

استندت إلى الحائط محاولة تهدئة نفسها، استنجدت بوجه أمها، أسرتها تعني الماما فقط، أما البابا فوهم، صورة بعيدة لا تعرف عنه شيئاً، تركها مذ كانت طفلة صغيرة لم تكمل عامها الأول- صفعتها ذاكرتها بصور عيد ميلادها الأول، تطفئ شمعة قالب الحلوى، أمها عن يمينها، وعن يسارها فراغ، تتابعت صور أعياد ميلادها، الصور كلها مع الماما والأصدقاء، والأقارب من طرف الأم، لبطت الصور من ذهنها، لكن ذاكرتها تحايلت عليها وهاجمتها من الجانب المقابل بصورها في مناسبات مختلفة، صورتها وقد سقط أول سن لبني في فمها، كيف طلبت إليها الماما أن تضحك والتقطت لها صوراً، تذكرت هيفاء أن أسنانها اللبنية سقطت كلها ونبتت بدلاً منها أسنانها الدائمة والبابا بعيد.

قبل أن تكمل عامها الثالث هاجر إلى أميركا، مات تماماً، وذابت ملامحه في ذاكرتها الطرية، لولا أنه أرسل ينجد مخزون ذاكرتها بصورته يقرأ جريدة، كان قسم كبير

من وجهه غائباً وراء الجريدة، ضاعت الصورة بعد مدة، وظلت صورته في ذهنها كسرة من وجهه...

كان يرسل لها بطاقة معايدة وحيدة كل عام مؤلفة من كلمات، تعدّها على أصابع يديها، ولا ينسى أن يرسل سلامه إلى أمها، رجل حضاري لا ينسى أن يرسل سلاماً لمطلقته!

مشت هيفاء في الباحة بخطا بطيئة على غير عادتها، جلست على المصطبة الصغيرة، والخاصة بعمود كرة السلة مسندة كوعيها إلى ركبتيها، وموسدة خديها في يديها، ذكرتها تلك الوضعية يوم أصيبت بالنكاف، كانت في الخامسة من عمرها، فتحت عينيها ذات صباح على صورة أمها بجانبها. اقتربت الماما تقبلها بشوق كبير، لكأنها لم ترها منذ أيام، كم كانت تتململ من قبلات أمها الشرهة القوية، التي تسميها (كاسات الهواء)، لكنها صارت تقلدها فيما بعد في طريقتها في طبع القبلات، تذكرت نظرة الدهشة في عيني أمها ذلك الصباح، وهي تلاحظ انتفاخ حنكيها، وما أن ابتلعت هيفاء ريقها الصباحي حتى صرخت متألمة: آخ، هنا يؤلمني، وأشارت إلى خديها، حملتها أمها وطمأنتها أن هذا المرض يصاب به معظم الأطفال، وأنها ستشفى منه خلال أيام، اصطحبتها إلى عند طبيبها المعتاد، تذكرت هيفاء أنها كثيراً ما كانت تجد الأطفال مع آبائهم وأمهاتهم في عيادة الطبيب، غصّت

وهي تعي حقيقة متجسدة بقسوة أمامها في باحة النفايات: انها دوماً بصحبة أمها، لم تكن يوماً واحداً بصحبته هو... البعيد، الميت.

فحصها الطبيب بدقة، ولم يصف لها سوى دواءً مسكناً، كانت هيفاء تكره الأدوية بشكل شراب، تفضل أن تبتلع حبوباً، ابتلعت هيفاء حبة وردية صغيرة قدمتها لها الماما مع قليل من الماء، لكن الوجع لم يهدأ، إلا بعد أن حكت لها أمها حكاية ساحرة لا تتذكر منها الآن سوى تلك البحيرة الرائعة التي تسبح فيها البطات والإوزات...

غمرت قلبها الطفولي دفقة حب هائلة تجاه أمها، استنجدت بطيفها ينقذها من ورطة موضوع التعبير... ماذا عساها تكتب عن أب غائب، عاد صوت المدّرسة يخز أذنيها بإبر مؤلمة... رسم وجهها المورد علامة اكتشاف وهي تتذكر أن سعاد وسوسن صديقتيها يتيمتا الأب، أحست بفرح التعاطف وهي تشعر بنوع من المساواة معهما... لكن حالة وجوم حزين سرعان ما تلّبستها وهي تكتشف الفروق الكبيرة بينها وبينهما... فالموت ليس خياراً إنسانياً، أما السفر فقرار. في أعماقها حسدت سوسن وسعاد على نعمة موت الأب، وغضت نظرها وهي تحس بذنب تجاه والدها، الرجل الذي تحمل اسمه... تنهدت بعمق وهي ترمق أوراق النفايات التي تفرش أرض الباحة، فجأة تحولت الأوراق إلى صور تتمايل أمامها بغنج وإيلام، تذكرت حفل

توزيع الجلاءات...؟ في آخر العام الدراسي، كيف حضرت هيفاء إلى المدرسة برفقة الماما، التي تحمل دوماً كاميرا لتصويرها في المناسبات، وحين ضج اسم هيفاء بأنها الأولى على ثلاث شعب، دمعت عينا الأم تأثراً، وصورت الطفلة تتسلم الجائزة من المدير، كانت الجائزة قصة حول العالم في ثمانين يوماً، لجول فيرن، قرأتها هيفاء برفقة الماما مستمتعة بشخصية الخادم، والمغامرات الطريفة للبطل... تذكرت هيفاء أن أغلب الطالبات حضرن برفقة الماما والبابا... تحسست يدها البضة رقبتها، إنها تشعر بعائق قاسٍ هنا، عند الحنجرة، عائق صريح ومؤلم... ابنة عشر سنواتٍ تكتشف شكل الغصة... وتحدد نوعها، غصة قهر أو حزن أو حقد!!

استقر نظرها في الزاوية القصية من الباحة، تسمرّ هناك، وخزتها ذكرى موجعة، يوم تشاجرت مع إحدى صديقاتها، كانت هيفاء تحمل قلماً له شكل تمساح، أرسله لها والدها من أميركا كهدية في عيد ميلادها، قالت لصديقاتها متباهية: هذا القلم من البابا، حملقت اليها صديقتها قالت: أأنت لديك بابا؟! ردت هيفاء بحماسة مدافعة عن هويتها، عن اسم الرجل الذي تحمله، والذي وهبها الحياة بعد إحدى نزواته.. أجل، لدي بابا، لكنه مسافر، ضحكت صديقتها قائلة: لا أصدق، قالت صديقتها: لكننا لم نرك معه، ولا مرة في الباحة، حكت هيفاء بقهر لأمها ما دار بينها وبين صديقتها، الآن تفهم

وهي وحيدة في الباحة، معنى تلك النظرة التي غمرتها بها الماما، ثم تلك الضمة القوية التي هصرت بها جذعها الصغير.

تلفتت هيفاء حولها في الباحة الواسعة المستطيلة، تنبهت إلى أن الجدران عالية أكثر مما تعرفها، كانت روحها محاصرة، تكتشف أبجدية المعاناة التي يمكن أن يحرضها في نفسها موضوع تعبير... كم هي بحاجة إلى أن تدفن وجهها الآن في حضن الماما، أو حضن العالم بالنسبة لها، الماما أسرتها الحقيقية، وحيدة القطب، انتفضت واقفة وقد أحست بنمل في رجلها اليمنى، حدثت نفسها: لن أكتب موضوع التعبير، لن أكتبه، في روحها تصميم وعناد، جديدان عليها، عصف بها غضب مكتوم تفجر في أعماق روحها، أشعلت عيناها بأول نظرة حقد، قادر بلهب نيرانه الخفية أن يخترق جدران الباحة مجتازاً مدناً وقارات وبحاراً، واصلاً إلى أميركا حيث الرجل الوهم الذي تحمل اسمه...

كزت على أسنانها وهي تقول: لن أكتب عنك، لن تكون البابا أبداً، لكن كيف ستواجه مدّرستها؟ ماذا ستقول لها؟ تخيلت أمها تطلب منها برقة أن تؤلف أي شيء، رن الصوت الحنون في أذنيها: سهل يا هيفاء أن نبتدع حادثة طريفة حصلت بينك وبين البابا، مجرد عشرين سطراً يا هيفاء... أنا أساعدك لو أحببت، أنا أكتبها..

صرخت هيفاء عالياً في الباحة: لا، لا أريد... رددت الجدران الرمادية العالية صدى احتجاجها الطفولي... لن تتراجع عن تصميمها... لن تبتدع قصصاً وهمية وطرفاً لم تحدث مع أب لم يوجد يوماً في حياتها...

مرّت الموجهة في الباحة، انخمصت هيفاء في صدارتها الكاكية، وهي تراقب تسارع خطوات الموجهة نحوها... سألتها: هيفاء، ماذا تفعلين في الباحة... لماذا لست في صفك؟

تلعثمت هيفاء، حولت نظرّها باتجاه المراحيض، ضحكت الموجهة قالت وهي تربت على خدها الذي طرّته الدموع: هيا إلى الصف.

ردت هيفاء بطاعة: حاضر يا آنسة.

تابعت الموجهة سيرها: وجدت هيفاء نفسها تلحق بها راكضة وهي تنادي بصوتٍ يختلج: آنسة، آنسة...

التفتت إليها الموجهة وقالت: نعم يا هيفا...

سألتها هيفاء لاهثة: آنسة، لو حدث أن تغيبت إحدى الطالبات عن درس التعبير مرتين متتاليتين، فهل تطالبها المدرسة بالموضوع؟!

نظرت المشرفة من عالمها العلوي الأصم إلى عالم طفلة غارقة في حنان موجع مرهف. ضحكت قائلة: لم أفهم قصدك يا هيفاء... انكمشت هيفاء وهي تعي أن الكبار لا

يفهمون حزن الصغار، وعت بروحها الخام نظرة الاستخفاف اللطيفة التي ترمقها بها المشرفة، ردت وهي تهم بالانصراف: آسفة آنسة، لم أقصد شيئاً، عن إذنك.

صعدت هيفاء درجات السلم ببطء مبلبلة بمشاعر غامضة، كبراعم مغلقة، تعرف بحدسها الطفولي أنها ستتفتح مع الأيام وروداً منداة بالدموع، كانت تحث عقلها لينجدها، كيف يمكن أن تفر من مجرد موضوع تعبير، جوهره الحقيقي جرح عمره عشر سنوات، اسمه البابا.

إشـــــراق

لم يسبقْ أن اختلّت ميزانية فريد بهذا الشكل، كان الكومبيوتر الخفي في دماغه مبرمجاً بشكل دقيق لينظم له حياته، تحديداً أموره المالية، واضعاً نصب عينيه اللتين تشعان دوماً نظرة حب للعالم قاعدة برمجته الأساسية: "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" بلغت دقة الكومبيوتر الخفي حدّ القلق إذا أخطأ بالحساب بمجرد خمس ليرات. كان فريد يسّجل كل مساء مصروفه، نادراً ما ينسى شيئاً، من الخبز، الجبن، التفاح، المناديل الورقية، المواصلات... إلخ، وكان يتوازن حول دخله المحدود كما تتوازن ملعقة معلقة في مركز ثقلها على طرف كأس. كان يعمل موظف محاسبة في شركة المرفأ صباحاً، ومدقق حسابات لتاجرين مرموقين في البلد، بعد الظهر، وسمح له دخله الإضافي أن يعيش بكرامة. كرامة تبدو له متقشفة أحياناً لأنه عاجز عن السفر خارج البلد في رحلة، وعاجز عن اقتناء سيارة، أو أن تكون له أحلام يتطلب تحقيقها الكثير من المال، أحياناً كان يشعر أن كرامته مرفهة لأنه يستطيع أن يأكل لحماً ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، وأن يشتري نوعين من الفاكهة،

وأن يكون لباسه أنيقاً. لكن السنوات الأخيرة ألغت تماماً أحلامه المستحيلة التحقيق، آمن إيماناً مطلقاً أنه يستحيل أن يتمكن من إقتناء سيارة، أو السفر في رحلة خارج الحدود!

أساس برمجة الكومبيرتر الخفي في مخه هو "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" لكنه لم يكن متذمراً أبداً. دوماً قلبه يطفح بالشكر والإمتنان للعالم كله. الزهرة التي يبهجه منظرها، ويشم أريجها، للماء الذي يروي ظمأه ويغسل قلبه من متاعب العمل، لعصير البرتقال الذي يقول عنه أنه يلامس قلبه حين يشربه طازجاً، كان ممتناً للخبز الساخن الطري المعجون بيد أخيه الفران، ذلك الإنسان المكافح الذي يباشر عمله قبل الفجر ليعجن الطحين، ويخبزه، ويقدمه للناس الذين ينتظرون طوابير على باب الفرن، فريد كان ممتناً للشمس التي تغمر الدنيا بالدفء. ويعتب عليها حين تتمنّع وتبخل على المخلوقات بدفء عواطفها وقلبه يطفح بالشكر للمطر لأنه يفجر الحياة في البذور المطمورة في الأرض، ويغسل غبار الأشجار وأحزانها، في أحيان كثيرة كان يجهل سبب الدموع التي تباغته فجأة وهو يسير في الشارع أو وهو يستقل سيارة أجرة. حيّرته تلك الدموع حاول أن يستنجد بالكومبيوتر المزروع في دماغه ليفسرها له، لكن الآلة العبقرية والغبية أجابته بأن الدموع. عبارة عن ماء وأملاح، لكن قلبه أنجده وكشف له سرّ تلك الدموع، إنها دموع

العرفان والإمتنان لكل الأشياء الجميلة واللطيفة في هذه الحياة...

كل يوم كان يشعر ربه على نعمة الصحة. ما اسعده وهو يعي كل صباح صحة جسده، ويشعر أن قلبه كحيوان صغير يتنطط سعيداً، وحده الصداع كان يذله من حين لآخر، وقد أجمع كل الأطباء الذين استشارهم أن سببه الإرهاق الشديد، وطبيعة عمله الحسابية التي تقتضي التركيز على الأرقام والحسابات.

للمرّة الأولى وهو في خريف عمره تختلّ ميزانيته هكذا، ويقف الكومبيوتر في مخه عاجزاً عن حلّ المعضلة، فقد ورث، أو بشكل أدق، تلقى مكافأة من أحد التجار الذين يدقق حساباتهم الشهرية، قدرها عشرين ألفاً، كان قد خصصها له التاجر بعد وفاته، وحين قدّم التعازي لأولاد التاجر الفقيد، سلّمه المحامي ظرفاً قائلاً : هذه أمانة من التاجر.قلب الأوراق المالية من فئة الخمسمئة ليرة في يده تنهد بسعادة: يا سلام، أربعون خمسمئة. بدا له المبلغ من الضخامة لدرجة أربكته، حاصرته عشرات الصور تغريه بالصرف، تجسدت أمام ناظريه عشرات الوجوه التي يحبها وتجمعه معها ألفة عميقة ومديدة، ويتمنى أن يُفرحها. لم يحتمل أن يذهب إلى البيت متأبطاً المبلغ، آه كم يستطيع أن يصنع بواسطته أشياء جميلة..

قصد سوق التجار حيث تترامى المحلات التجارية تتنافس في عرض بضائعها، أغواه حذاء من الجلد اللماع يطلّ من الواجة ، حدّث نفسه بود: اشتره يا فريد، أنتَ تستحقه، صحيح أنك لا تحتاجه، لكن لِمَ لا تكون مسرفاً يوماً واحداً في عمرك، صحيح أنه حذاء باهظ الثمن، ولم تعتد أن تلبس أجود الأنواع، لكن لا بأس، بدد بضعة آلاف ثمن حذاء لمرة واحدة في حياتك... لم ينسَ أن يحدّث نفسه حين دفع ثمن الحذاء للبائع، قائلاً: ألف مبروك يا فريد.

حين أخرج رزمة المال من جيبه ليدفع للبائع، أحس بغطرسة الأمراء، رفض أن يتسلم من البائع الليرات القليلة المتبقية من سعر الحذاء، غاص في أعماقه متلذذاً بالمتعة الخاصة والعارمة للشراء، حدّث نفسه! لا يمكن إذلال المال إلا بصرفه. وإلا فهو يصير السيد، ويذل صاحبه، يجبرك أن تعامله كابن وحيد تخشى عليه من القبلة خوفاً من انتقال الجراثيم اليه.

حمل الكيس الأنيق الذي يحوي أفخم حذاء ستلبسه قدماه خلال نصف قرن من الزمن، أطلّت ثلاثة وجوه يعبدها – أولاد أخيه– في واجهة مخزن ألبسة للأطفال، ناداهم بحنان ريم، حمادة، رَهف، دمعت عيناه وهو يتخيل سعادتهم الطفولية التي يشعر أن لها رائحة الورد الجوري، وهم يفتحون هداياه، مازح نفسه قائلاً: اسخ يا رجل، اسخ على الأطفال المساكين، اشتر لهم الثياب التي لا يحلمون

بلبسها، فجيبك مليء بالمال، مال لا تحتاجه بل يربكك، حوّله إلى بهجة، راقت له الجملة الأخيرة كثيراً، تمنى لو يتقن حرفة الكتابة ليؤلف قصة يسميها "حول المال إلى بهجة"، اختار ثياباً رائعة لأولاد أخيه، وحين دفع نصف المكافأة ثمناً لها، أحس بغصة ملتبسة في قلبه، إنه ثمل بالسعادة، لكن ثمة شعور يهمس بأذنه بأن ما دفعه يعادل شقاء أربعين يوماً يرهق خلالها عينيه من الصباح حتى المساء، هزأ من الشعور المتسلل إلى روحه المبتهجة قائلاً: أية سعادة تعادل أن يفرح أحبائي. سلمته صاحبة الدكان الثياب قائلة: أنت سخي مع أولادك.

غصّ وهو يرد على ابتسامتها بابتسامة مجاملة: أجل، هاجمته صورة نجوى، زوجته التي هجرته بعد عامين من الزواج لأنه عاقر، عذرها وطلقها رغم حبه الشديد لها، تذكر نظرة الطبيب التي تعود لأكثر من ربع قرن، نظرة طافحة بالشفقة وهو يقول له: للأسف يبدو أن النكاف كان له تأثير سيىء للغاية.. قاطع الطبيب: فهمت، فهمت يا دكتور. لم يحقد ولم يستسلم للقهر، ولم يسمح لأية عقدة أن تتشكل في روحه المنسوجة من النور، استوقفته شحاذة لم تتجاوز الخامسة من عمرها كما قدّر،أحس بخجل وهو يواجهها محملاً بالأغراض تأملها بكل الحنان المختزن في روحه كيف تمد له كفاً صغيرة قذرة وتلبس أسمالاً غريبة لا يعرف حقيقة لونها وشكلها، وتقول بصوت جعل قلبه يرتجف: من مال الله، ترجع صدى صوت الصغيرة في

أذنيه: من مال الله، ليت المال يكون لله، ويوزعه بالتساوي على البشر، أحس بما يشبه اليقين أن لهذه الصغيرة حصة في مكافأته، أنقدها دون تردد خمسمئة ليرة. حملقت فيه بذهول، انفتح فمها لتقول شيئاً، لكن يبدو أن الكلمات فرّت... عصرت ورقة النقود بكفها وفرّت هاربة من أمامه، راكضة بسرعة إعصار، ابتسم لطيفها وهو يدرك حقيقة سلوكها، بالتأكيد اعتقدت أنه يمزح، وسيستعيد نقوده، أو لعلها تعتبره مجنوناً إنما لن يخطر ببالها أبداً أنها إلتقت رجلاً قلبه مفعم بالحب.

ذكرّته واجهة مخزن للحلويات بجاره المقعد الذي لم تعد له متعة في الحياة سوى تذوق الشوكولا والسكاكر، اشترى كيسين من أفخم أنواع السكاكر، وتخيل المقعد في الثمانين يفرح بالمفاجأة وتزداد تغضنات وجهه بابتسامته العريضة، ماذا لو أدخل البهجة إلى قلب هذا المسكين، الذي يتذمر أولاده وأحفاده ليل نهار من خدمته، ماذا لو أشعر هذا الكهل المهترئ، الذي يعرف بأعماقه أن الكل ينتظر موته، يحلم بموته، ليستولوا على غرفته، وفراشه وآلة حلاقته! ماذا لو عرف هذا الرجل المسكين قبل أن يستقر في كفنه أن ثمة قلباً يحبه ويتمنى له السعادة...

دارى ابتسامة نصر وهو يتأمل نفسه بعين خياله محملاً بالأغراض، أحس أنه أثرى رجل في العالم، تأمل عمق المتعة التي حققها له ذلّ المال بالصرف، بتحويله

إلى بهجة، وابتسامة نهديهما للآخر، كان يفتش عن كلمات يصف بها متعة الصرف، خاصة، أنه لم يتعرض طوال حياته لهبوط ثروة مفاجئة عليه!

كان قد اقترب من منزله حين غزت خياله صورة البواب، الرجل البائس المتذمر أبداً من ثمن أبر الانسولين، تذكر البواب يوم قال له غاضباً: والله يرتفع سكر الدم معي كل مرة أشتري أبر الأنسولين، والله أدفع ثلاثة أرباع راتبي كل شهر ثمناً للدواء... أليس الموت أشرف من هذه الحياة؟! لماذا لا يفاجئ البواب بعشرة أبر أنسولين على الأقل؟ يا للحظ السعيد ها هي صيدلية على بعد خطوات منه، سيشرح للصيدلي الأمر، وسيقنعه أن يبيعه الإبر دون وصفة طبية، هاله المبلغ الكبير الذي دفعه للصيدلي، لكن العزاء سرعان ما طغى على روحه، وهو يتخيل سعادة البواب التي تقارب الذهول.

أخذ جسده ينضح العرق، من المشي ربما، أو من ثقل الأغراض التي يحملها، حدث نفسه: تبخرت المكافأة يا فريد خلال ساعة... ضحك: ليكن، ما أسعدني وأنا أجمّل الحياة بالمال.غمرته سعادة عارمة وهو يتخيل السرور المرتسم على الوجوه التي يحبها حين سيغمرهم بهداياه لكن شعوراً قاسياً انقضّ عليه، كلصٍ متربص به، وهو يهم بالإنعطاف إلى حارة منزله، شعور جعله يتوقف، مسقطاً الأغراض من

يديه، ليسائل الحياة بدهشة طفل في الخمسين: ترى ماذا يفعل الأغنياء بالمال!!!!

هذا من فضل ربي

أذكر عاصفة الضحك التي انتابتني أول مرة رأيته، كان رجلاً يتجاوز الأربعين، يركب دراجة، وقد لبس معطفاً مطرياً من النايلون الأخضر الرخيص، وسجن رأسه في كيس نايلون أبيض، كان يبدو مرتبكاً ليس من المطر فقط، بل من طبقة بخار الماء التي شكلتها أنفاسه على سطح الكيس من الداخل، لكني خجلت من عاصفة ضحكي وتحول شعوري نحوه إلى شفقة عميقة.

بعد أيام التقيته عند باب المصعد، لا أدري لماذا انتابني فضول شديد لأتفحصه متجاهلة انزعاجي من الناس الذين يتفحصون مظهر غيرهم، ووصفهم بقلة الذوق، هذه المرة لم أبال. شيء أجهله شدني لتفحصه بدقة، واستوقفني إطار نظارته الذي ثبته من جهة بسلك معدني رفيع، كان الإطار مائلاً، وبدت عيناه داكنتين مطفأتين من وراء الزجاج السميك، كانت سمرته داكنة، سميته بسرى "العتم". كان يرتدي كنزة رمادية قدرت أن عمرها أكثر من عشر سنوات، لارتخاء أكمامها، ولبعض القطب المنفتقة عند البطن والياقة، وأحسست بارتباكه فخفضت نظري ليصطدم

بحذائه البني المتخشب، وأنتزع دهشتي، لم أر في حياتي رِجْلاً بعرض رجله أبداً.

بدا مرتبكاً، سألته أي طابق يقصد قال: الخامس، ابتسمت، كنا نقصد الطابق نفسه.

دخلت مكتبي ورأيته يخرج مفاتيح من جيب بنطاله ويفتح باب مكتب ظل مغلقاً سنوات. دخل وأغلق الباب وراءه، عرفت أنه ينظف المكتب لأن قرقعة أصوات التنظيف كانت تصلني، بعد ساعتين خرج صافقاً الباب وراءه بقوة انتزعت مني شتيمته عنوة.

كان المكتب المهجور سنوات لمخلص جمركي تقاعد عن العمل منذ سنوات لإصابته بنوبات احتشاء قلب متكررة، وكنت أسمع من جيراني في المكاتب المجاورة أن الزمن جار عليه حتى أفلس، بعد أن كان يلعب بالمال بلا حساب.

بعد أيام عاد العتم –كما سميته– يفتح المكتب، وعرفت من الجيران أنه رجل فقير رجا المخلص الجمركي كي يعمل باسمه، واستطاع أن يقنعه أن يجربه عاماً واحداً، ويبدو أن الأخير قبل، لأن الزمن اضطره أن يحتاج للمبلغ البسيط الذي سيدفعه له الرجل العتم.

كان العتم أبا لسبعة أطفال يعيش مع أسرته ووالديه العجوزين في قبو مؤلف من ثلاث غرف. كان قد حصل على الشهادة الابتدائية وتنقل في أعمال كثيرة، كان آخرها

أنه عمل حاجباً عند مخلص جمركي معروف أربع سنوات، تركه بعدها، بعد أن تعلم فن المهنة ومن أين تؤكل الكتف، وأقنع المخلص الجمركي القديم بأن يعمل باسمه ويفتح مكتبه في التخليص والشحن والترانزيت العربي والدولي.

ابتدأت رغماً عني أراقب حلقات المسلسل اليومي، فمكتب العتم مقابل مكتبي مباشرة، كان يستحيل أن أتجاهل ما يجري أمامي كل يوم، وإذا قصدت في البداية التجاهل، فإن تطور الأحداث جعلني منشدة بشكل عجيب لمتابعة ما يجري.

خلال أشهر صار المكتب يعج بالمراجعين من جميع المستويات، رجال أعمال، أطباء، مهندسون، رجال سوقيون يلبسون جلاليب، يصرخون مطالبين بأجورهم، عرفت أنهم سائقي الشاحنات التي تنقل البضائع، كانوا دوماً على خلاف مع العتم حول أجورهم، وكانت تنشب معارك حادة بينهم وبين العتم يتبادلون فيها أقذر الشتائم وفي كثير من الأحيان تشتبك الأيدي ويبدأ الضرب، حتى يتدخل موظفو المكاتب المجاورة.

مصيبة كان هذا العتم في طابقنا، لكنه بعد أن انطلق في عمله، حاول تحسين علاقاته مع الجيران، قصدني ذات صباح، بدا مضحكاً في ثيابه الجديدة المتنافرة الألوان، جاكيت بمربعات عريضة من اللونين الخمري والأخضر،

وبنطال عفني، وحذاء جديد بني اللون، كنت أدهش كلما نظرت إلى قدميه. كانتا أشبه بقطعتي خشب عريضتين.

استأذنني في الدخول بأدب مفتعل ومبالغ به، قلت له تفضل، فهو جاري في كل الأحوال. كنت أرشف قهوتي وسألته إن كان يرغب بفنجان قهوة، قال: لا مانع عندي، لكن لو سمحت بدون سكر لأني اشكو من الداء السكري.

كان يدخن بشراهة غريبة، دخاناً خنقتني رائحته فهو من أردأ الأنواع وأرخصها، جلس يرشف قهوته ويفرز كلامه العشوائي، لم يسألني أي سؤال شخصي، من فوضى كلامه فهمت أنه يتحرق قهراً لأنه لم يكمل تعليمه، وان حلمه الوحيد أن يحصل أولاده على الشهادات الجامعية، وأن الله أخذ يفتح عليه بالدخل الممتاز بعد سنوات طويلة من القهر والحرمان، وفي آخر كلامه أفهمني قصده الحقيقي من زيارته، كان يريد أن أتوسط له في مكان عملي الصباحي في المستشفى كي يصلح أسنانه مجاناً، ووعدته وخرج يمطرني بكلمات الشكر والدعاءات بتحقيق كل أمنياتي، ولوهلة أردت أن أطلب منه بصدق، أن أهم أمنياتي أن يوقف شجاراته العنيفة والمقرفة مع سائقي الشاحنات، لكني آثرت الصمت.

في نهاية العام الأول، انتهت حلقات المسلسل اليومي لجاري العتم بأن اشترى المكتب من صاحبه، واستبدل بدراجته سيارة جولف مستعملة، وسمعت أنه انتقل من القبو

إلى بيت كبير، وصار عدد موظفيه أربعة. آه نسيت أن أقول أنه جدد أثاث المكتب بكامله.

في نهاية العام الأول كنت أتأرجح بين المعقول واللامعقول، هل يعقل دخل العتم وفي عام واحد؟ كنت أميل إلى اعتبار أن كل ما حدث من تطورات مع جاري هو ضمن المعقول. كنت أبرر له، ماذا فعل، استبدل الدرجة بسيارة، لكنها مستعملة، اشترى المكتب بالتقسيط ربما، لعله أخذ قروضاً كثيرة، انتقل من القبو إلى بيت كبير، لكنه استأجره. لماذا كنت أبرر؟! ليس لأن العتم يعنيني –بل لأني ما كنت أريد لعقلي وأحاسيسي أن تصطدم ببشاعة الحقيقة، الحقيقة التي أخذت تتكشف لي شيئاً فشيئاً فيما بعد.

في عامه الثاني أذهلني فعلاً، كان ينتزع دهشتي كل يوم، تراكمت الأحداث بسرعة ما عدت قادرة على ملاحقتها، فما أن انتصف العام الثاني حتى صار عدد موظفيه ثمانية. أربعة يداومون صباحاً، وأربعة بعد الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل، يعملون كالنحل، إضافة لموظفين اثنين نادراً ما كانوا يأتون إلى المكتب لأن عملهما الرئيسي في الجمارك.

ما كاد العام الثاني ينتصف حتى كان العتم قد اشترى منزلاً كبيراً وفي أرقى شوارع المدينة، وباع سيارته المستعملة واشترى سيارة رينو جديدة، وأنه ساوم جاره ليشتري مكتبة

ويوسع نشاطه، وأمام اغواء المبلغ الكبير الذي دفعه العتم قبل الجار أن يبيعه مكتبه، وجعل مكتباً للموظفين ومكتباً خاصاً به، لضيوفه الخاصين، وللشخصيات الاعتبارية، ولعشيقاته من النساء اللاتي أخذن يتوافدن إليه، شيء وحيد لم يتغير هو شجاراته السوقية مع سائقي الشاحنات، التي كانت تدفعنا للهروب وإغلاق مكاتبنا في كثير من الأحيان.

في نهاية عامه الثاني كان قد تزوج إحدى موظفاته، وهي فتاة جامعية جميلة من أسرة متواضعة تصغر كبرى بناته بسنتين، قبلت بالعتم بكل فخر واعتزاز، دافنة حرمانها إلى الأبد، مطلقة أحلامها تسابق ملايين العتم، وماذا يعنيها من زوجته وأولاده أو من الفرق الثقافي بينهما.

فالملايين تخلق المعجزات!

اشترطت أن يشتري لها فيلا لا تقل فخامة عن منزل زوجته الأولى، وسافر مع زوجته الثانية شهراً إلى باريس، عاد محملاً بالهدايا الثمينة للموظفين كلهم، وفي نهاية عامه الثاني كان يدخن الروثمان، ويتباهى بإطار نظارته الريبان من الذهب الخالص.

في بداية عامه الثالث كان قد اشترى سيارة مرسيدس أحدث موديل، كما اشترى مكتباً في دمشق بالملايين، وآخر في بيروت. كان يفاخر أنه استورد أجهزة طبية لثلاثة مشاف، وأن الأطباء يقصدونه لاستيراد الأجهزة الطبية، وما عاد من حديث يسكره ويعوضه عن نقصه سوى ما نفع

الشهادات؟! وما نفع العلم، كنت أتابع بصمت وبدون تعليق تطورات المسلسل اليومي، وفي عامه الثالث سافر إلى مكة للحج، وعاد باسم جديد الحجي، وبعد أيام أخذت وفود من رجال الأعمال السعوديين تتوافد إلى مكتب الحجي وتعقد معه الصفقات التجارية، لقد ضرب عصفورين بحجر واحد في حجته، فقد منن الله، أنه أدى واجبه، ووسع نشاطاته التجارية مع السعوديين. كان يبالغ بتبرعاته للجمعيات الخيرية خاصة للمواساة الإسلامية، ويسأل الجيران عن العائلات الفقيرة ليساعدها. كان يعتقد بسره أن دعاء الفقراء الذين يغدق عليهم أمواله يرد عنه نار جهنم للطريقة التي جمع بها هذه الملايين، ذلك أنه كان يؤمن بمادية جهنم بالنار المحرقة، وكان يحلم بحوريات الجنة، ويحلم بهن كل يوم، كن وحدهن يدفعنه للتبرعات للجميعات الخيرية، معتقداً أن ذلك هو الأسلوب الوحيد الذي سيعبر به إلى الجنة.

ذات صباح سمعت صوت تكسير حاد في مكتبه، وصراخ موظفة، وظننت أن المسكينة جرحت، وهممت لنجدتها، لكني ذهلت من منظر العتم وقد كسر أحدث آلة كاتبة كهربائية لأنه لم يعرف كيف يدير أزرارها، فلطمها، وصرخت الموظفة مذعورة. كان سعر الآلة يعادل دخل موظف محترم لمدة عامين لكنه بعد أن هدأ كطفل يحمل لعبته قال بسيطة الآن أشتري غيرها...

وأسرع إلى مكتبه ليفحص سكر الدم بجهاز متطور لعيار سكر الدم. كان منظره وهو يستخدم أحدث المبتكرات العلمية مثيراً للضحك والألم معاً... كنت أحسه لقطة سينمائية ناجحة جداً، ولكن أين المخرج الذي سيكتشفه؟!

حكت لي إحدى موظفاته ذات يوم أنه شره للحلويات وأنه أوقف علاج السكري لامبالياً بنصائح الأطباء، لأنه يؤمن بمزار في الدريكيش يشفي المرضى من عللهم.

في نهاية عامه الثالث، التقينا عند باب المصعد، أنا وهو، فتح لي الباب وقال بتبجح: تفضلي جارتنا العزيزة، كان يحمل يافطة كبيرة تدير لي ظهرها، ضغط الزر الخامس للمصعد، كانت رائحة عطره تخنقني، يبدو أنه صب زجاجة الكولونيا بكاملها على جسمه، كان عبارة عن ماركات عديدة مجتمعة، النظارات الريبان، حمالة المفاتيح المرسيدس من الذهب، حذاؤه الذي تفوح رائحة جلده الطري... كانت البرهة التي استغرقها المصعد ليصل إلى الطابق الخامس تكثف لي زمنه خلال ثلاث سنوات، يوم رأيته يركب الدراجة غارقاً بالنايلون، والعتم، نصف المتعلم، والأمي، الذي يوقف علاج السكري لإيمانه بالمزار الذي يشفيه، شجاراته مع سائقي الشاحنات، زيارته لمكة بحجة الحج، السعوديون، الأطباء، التجار، علاقاته المتشعبة، والملايين التي جمعها في فترة وجيزة. بدا لي زمن ثرائه

بسرعة صعود المصعد، غريب، كنت أتساءل غير مصدقة: غير معقول كيف ذلك؟ أيعقل ذلك؟

فتح لي باب المصعد وأنا في قمة احتراق تساؤلاتي، تعلم أن يتصرف كرجل حديث النعمة. قال تفضلي، اتجهت لمكتبي واتجه هو إلى مكتبه، وفجأة حانت مني التفاتة باتجاهه. كانت اليافطة تدير لي وجهها المذهب، وقد كتب عليها بخط كوفي كبير، (هذا من فضل ربي)، انتزع مني ضحكة لها طعم دواء مر كنت أهرب منه وأنا صغيرة معتقدة أنه يسمم ولا يشفي...

كرامة مرضوضة

أخيراً وفقت إلى عمل بعد بحث مستميت دام أكثر من أربع سنوات، وبعد أن آمنت بانعدام الأمل في إيجاد وظيفة بدت لها السنوات الأربع أشبه بكابوس، كتلة مرصوصة ككرة كتيمة، لكن إذا قربت منها وجهها وحملقت إليها، بدت أيامها اللانهائية معكوسة في مرايا لا نهائية داخل الكرة، صورة واحدة تطغى في كل المرايا، صورتها ببنطال الجينز، والبلوزة الفضافضة وحمالة المفاتيح بشكل أرنب أحول العينين، وقد علق فيها مفتاح وحيد لشقة صغيرة مؤلفة من غرفتين وصالة صغيرة، تجمعها مع إخوتها السبعة ووالديها، كانت الثمرة الأولى لتزاوج شابة أمية في الخامسة عشرة من شاب يعمل موظفاً في البلدية في الثالثة والعشرين، والذي يتقن خياطة البناطلين الرجالية، يعمل خياطاً في أوقات فراغه، يقصده جيرانه ومعارفه، ليساهم بدخله الإضافي في تخفيف شعور الجوع لدى أطفاله.

حصلت إيناس على الشهادة الثانوية بمجموع جيد، لكن فروع الجامعة التي ترغب فيها لفظتها، وجدت نفسها تتجه دون وعي منها إلى المعهد الطبي، قضت فيه سنتين،

تخرجت بعدها إلى الشارع، بل إن الشوارع كلها استقبلتها بحفاوة فاتحة أمامها اتجاهات السير كلها!

هذا ما كانت تقوله لنفسها ساخرة، وهي تبحث عن عمل، مقدمة الأوراق المطلوبة لعدة جهات، السنوات الأربع يمكن اختصارها بصورة وحيدة، صورتها تسير في الشوارع تحمل مصنفاً يضم صوراً من الشهادة الثانوية، وإخراج قيد ولا حكم عليه، وصورة عن شهادة المعهد الطبي، وصوراً شخصية لها، وفي جيب بنطالها دست عشر ليرات أجرة المواصلات، أحياناً كانت ترمق المارة بنظرات مستطلعة محاولة استكشاف بواطن أفكارهم، متسائلة: هل يبدو على مظهري أنني لا أحمل في جيبي سوى عشر ليرات!

كانت هيفاء القامة، أميل للنحول، تنتزع نظرات الإعجاب بقوامها المتناسق الرشيق، وشعرها الكستنائي الطويل المحيط بوجهها الجميل، وقد أضفى عليه الحزن المديد بهاءً وصفاءً.

كل الجهات التي قدمت لها أوراقها للعمل، كانت تطلب منها الانتظار والمراجعة كل مدة، ما كانت تستطيع خنق خيط الأمل، اكتشفت أن العذاب الحقيقي للإنسان هو في هذا الخيط الواهي، الذي يجرها وراءه من سرابٍ إلى سراب، الأمل هو العذاب، توصلت لهذه النتيجة وآمنت بها. خبرة السنوات الأربع من البحث عن وظيفة جعلتها تدرك أموراً كثيرة، كل الوظائف ممكنة بالدفع، تذكرت صدماتها

الأولى التي كان لها صدى كارثي في نفسها الغضّة التي لم تتعود بعد على صفعات الحياة، كيف كانت تفاجأ بقبول موظفين أقل كفاءة منها بكثير، كانت ترجع إلى البيت تبكي قهراً، أياماً، عاجزة عن ابتلاع الطعام، فاقدة كيلوات من وزنها من القهر والشعور بالغبن، حتى صرخ أخوها ذات يوم قائلاً: كفى، مللنا هذا الموال، كل مرة ترفضين من وظيفة، تقيمن وليمة للحزن، اختنقت روحنا من خيباتك، أوف، عيشة لا تطاق.

ورغم أن كلمات أخيها جرحت قلبها كشفرات حادة، إلا أنها بعد فترة وجدت أنه محق، ما عادت تقيم ولائم الحزن، بل تمكنت من الاهتداء لأذكى حيلة في امتصاص الآلام والخيبات: العادة. تعودت حتى أنها صارت تمازح نفسها بسخرية مرّة، وهي تراجع بشأن توظيفها قائلة: سأرفض بالتأكيد، وستقبل فلانة لأنها قريبة فلان الفلاني، أو عشيقته أو قادرة على الدفع... أو ماذا تعدد من أسباب أما الكفاءة فهي العامل الوحيد خارج قوسي القبول.

تم قبولها في الوظيفة كعاملة في مصنع ألبسة قطنية ولادية ببساطة غير متوقعة، عن طريق أحد أصدقاء والدها الذي كان شريكاً في المصنع، تم قبولها دون حاجة لأي من شهاداتها، لسبب وحيد كونها تلم بمبادئ الخياطة التي تعلمتها من والدها، سلموها آلة الحبكة، بعد أن دربتها المشرفة، وهي امرأة عبوس في الأربعين على طريقة العمل،

ظلت أياماً مصابة بالذهول، وسط قاعة المعمل التي تضم خمساً وعشرين آلة، والعاملات على الآلات، ظل شعور غريب يوسوس في ذهنها، بأنها ليست هي، لكأن طفولتها وسنوات شبابها ودراستها، والسنتين اللتين قضتهما في المعهد الطبي، تفر منها، أو هي تلفظ كل هذا الركام، ما هي الآن سوى عاملة تملك معرفة لا بأس بها بالخياطة، تقضي ثماني ساعات وراء الآلة، متحملة نوب السعال والعطاس التي يحرضها في صدرها غبار القطن، كانت نوب ألم حادة ومفاجئة تخترق قلبها كالبروق، وهي تسائلها بحزن: أهذا مكانك بعد بحث سنوات عن العمل؟! فتغص ولا تملك جواباً سوى كلمة مطاطية تضم كل التناقضات: ظروف!

أجل، ما الإنسان سوى محصلة ظروفه، من منا يختار حياته؟! ناس تولد وفي فمها ملعقة من ذهب، وناس تولد للشقاء، هكذا كانت تفكر، وجدت عزاءها في العاملات معها، أغلبهن يماثلنها في الظروف، بل إنها فوجئت أن اثنتين من الموظفات معها، حاصلات على شهادة جامعية.

كانت متعتها الوحيدة وسط هدير الآلات الذي أصابها بصداع يومي اعتادت عليه بعد أسابيع، هي استراحة الغداء، حيث تتطوع إحدى العاملات بشراء سندويش للجميع، كنّ يبتلعن اللقمات الجافة بصعوبة، وفي أحيان نادرة كن يسمحن لأنفسهن بأقصى رفاهية ممكنة، هي

شرب المياه الغازية مع السندويش، استراحة الغداء كانت أشبه بالعلاج النفسي للعاملات البائسات، كل منهن تفضفض بالحديث، الأحاديث غير مترابطة، ولا تخضع لمنطق الحوار، بالإصغاء والانتباه، مجرد كلام متناثر في الهواء، منطلق من كل الحناجر، كغبار القطن تماماً... لكن بعد انتهاء ساعة البوح الفوضوية، تتنهد الفتيات بارتياح، ويعاودن العمل على الآلات الصماء، تاركات لأحاسيسهن التخّدر بصوت الرتابة الأبدي...

كانت المشرفة على العمل، سيدة في خريف العمر، متسلطة، تزعق بالعاملات طوال الوقت، وتتعمد انتهاك كرامتهن، ولا تكف عن تذكيرهن كل لحظة بأن مصير وظيفتهن في يدها، وبأنها تقدر بإيماءة منها لأرباب العمل، أن تقطع رغيف الخبز عن أفواههن.

كانت إيناس تتجاهلها، وتحاول محو سموم كلماتها من نفسها بسرعة، تتفانى في عملها كي لا تترك لها مجالاً للشجار، رغم أن خاطراً كان يلح عليها بأن تتوقف عن العمل لحظاتٍ وتسألها: ترى ألا تستحق كلمة شكر واحدة؟

كانت المشرفة تستمتع بوقع حضورها الكابوسي على العاملات، منعتهن عن الكلام أثناء العمل، حتى الهمس السريع كان ممنوعاً، وإذا صدف أن سمعت همساً أو ضحكة، فإن وابل شتائمها القذرة يلعلع في المكان مغطياً على صوت خمس وعشرين آلة، ألطف جملة تتفوه بها:

اخرسي يا حيوانة، ثم تهدد بالطرد وقطع الأرزاق كالعادة.

كان الراتب على هزاله يدخل الفرح إلى قلب إيناس، يشعرها بالاستقلال، ثم لم تعد بحاجة إلى أن تحوم كل صباح حول والدها لينقدها أجرة المواصلات... لا يمكنها أن تنسى أول راتب قبضته، سارعت بلا وعي منها لتبدل جلدة ساعتها التي كلفت مئة ليرة! بدت لها تلك اللقطة على عفوية بساطتها، صورة لحياتها كاملة، ثم سارعت لتشتري ثياباً داخلية، لأنها كانت تلبس خرقاً مهترئة، مراراً كانت تجفل من فكرة طارئة تقتحم خيالها في الشارع تسائلها: ماذا لو أغمي عليك؟ ونقلوك إلى المشفى؟ كانت ترتجف خجلاً وهي تتخيل الطاقم الطبي يسخر من ثيابها الداخلية، وجواربها الممزقة التي تخفي جروحها في حذاء قديم يحاول جاهداً مقاومة الفناء... مكنها الراتب البخيل أن تساهم في مصروف البيت، ما أسعدها وهي تشتري الخضار والفاكهة، والألبسة المستعملة لأخواتها، انتظمت حياتها في العمل، وكونت صداقات، صارت تزور وتزار، وتتهامس بأسرار الشباب مع صديقاتها في المعمل، بعد عام من العمل ضجّ المعمل بخبر زواج المشرفة المتوحشة، كما كن يسمينها، صُعقت الفتيات من المفاجأة، وهن يتساءلن: من هذا المسكين الذي وقع ضحيتها؟! دعتهن المتوحشة إلى عرسها بعد أن طلبت إليهن بصفاقة أنها لا تقبل هدايا سوى الذهب!

صرخت النظرات الخرساء في عيون العاملات بالاحتجاج: أنحن قادرات أن نشتري الذهب! لكن بعضهن أذعن للأمر، خفن أن تطير الوظيفة إن لم يدفعن الأتاوة بشكل هدية للمتوحشة المسؤولة عن لقمة العيش، إيناس رفضت الفكرة، بل اشمأزت منها، قائلة بتحدٍ واحتقار: أولاً أنا لا أملك ثمن قطعة ذهب، ثم أنني لست مقتنعة أبداً بالهدية التي تفرض فرضاً. لم يمضِ شهر على زواج المشرفة، حتى ضج المعمل بخبر طلاقها، تهامست العاملات تعليقات ساخرة ومضحكة، لكنهن حرصن على لبس قناع الوجوم والتعاطف مع المشرفة ولم تجد العروس الخائبة ساحة لتفريغ شحنات غضبها ونقمتها من الزواج، سوى العاملات المسكينات، ازدادت شتائمها دناءة، وتسببت في طرد عاملتين لأسباب مفتعلة صرن يرتجفن من خيالها وصوتها، لكن إيناس ظلت تتحمل بمكابرة عالية كل ما يحصل حولها، لكنها اكتشفت أنها أصيبت بعدوى الصراخ والقساوة، صارت تعامل إخوتها بقلة ذوق، وعدم احترام، تتفوه بالشتائم البذيئة التي تتلفظ بها المشرفة، تنبهت إلى أن إخوتها صاروا يتجنبونها، ويفرون منها مأن تحضر إلى البيت، حتى الأغراض التي تحضرها لهم عافتها أنفسهم، بكت بحرقة، وهي تعي فشلها في مقاومة سموم المشرفة، لكنها عادت تبحث عن اللطف الأصيل المجفل في أعماقها، لتغمر به إخوتها كعادتها.

ذات صباح همست إحدى صديقاتها بصوت كالفحيح

تسالها: إيناس، هل تحملين دواءً مسكناً؟ ما كادت إيناس تهم بالرد حتى انقض صوت المشرفة على رأسها، كبقضة من حديد تمسكها من نقرتها، زأرت: اخرسي يا حيوانة، كم مرة قلت الكلام ممنوع. وجدت ايناس نفسها ترد بصوتٍ واثق تفوح منه كرامة متالقة: أنا لست حيوانة، أنا إنسانة، زأرت المشرفة، أتردين علي يا سافلة.

أجابت إيناس: أنا لست سافلة، احترمي نفسك لو سمحت.

جنت المشرفة من نبرة الكرامة في صوت إيناس، صرخت بهستريا: اخرسي، اخرسي يا حقيرة... تحلقت نظرات الفتيات حول إيناس، تضرعت إليها العيون أن تكف عن الكلام... سكتت، أجبرها رغيف الخبز أن تخرس، ارتعبت من فكرة عودتها للتشرد في الشوارع بحثاً عن وظيفة..

لكن المشرفة التي انهزمت إلى حد كبير بموقف إيناس، استشرت، وتحولت إيناس لساحة انتقام ترضي سادية المشرفة، تساعدها على تفريغ شحنات غضبها ويأسها، افتعلت شجاراً بعد أيام مع إيناس، وقفت قبالتها قائلة بتهكم: ما هكذا يتم تركيب الكمّ يا غبية.

ابتلعت إيناس الإهانة، كانت تبحر في ذاتها تتفرج على الخراب الذي يحدثه كلام المشرفة...

لكزتها ربة العمل من كتفها بحنق قائلة: حين أكلمك يا

تافهة، ردي علي.

اشتعل جسد إيناس بالغضب، أحست أنها على وشك الانفجار، لكنها استطاعت أن تجيب ببرودة: طوال عملي في هذا المشغل، أركب الكم هكذا، وما كنت تعترضين!

قالت المشرفة باستفزاز: يبدو أن عملك قد تراجع، ما عدت مهتمة كالسابق، يبدو أنك مطمئنة أن الوظيفة دائمة، والله أنا أقدر أن أعيدك بلحظة إلى الشارع.

انفجرت ايناس قائلة: أنا لم أقدم من الشارع، هل فهمت، أنا ابنة أسرة شريفة صحيح نحن فقراء، لكن كرامتنا فوق أي اعتبار...

اختنق صوت إيناس ببكاء عاصف، كان جسدها يختلج وهي تبكي بصوتٍ عالٍ متوجع، أخذ جسدها يرتعش كأنه أسير حمى، تركتها المشرفة وهي تصرخ متوعدة: أتبكين بدموع التماسيح يا فاجرة، يا مدعية الكرامة، سنرى أين كرامتك يا ساقطة؟

قررت إيناس أن تفاتح أحد الشركاء في المصنع – صديق والدها– بالمعاملة اللاإنسانية التي تعاملهن بها المشرفة، حذرتها صديقاتها من لا جدوى الشكوى، وأكدن لها أن المشرفة ستزداد شراسة وحقداً، وستعتبر سلوك إيناس تحدياً لها، وبأن أرباب العمل متمسكين بالمشرفة أكثر من أية عاملة لديهم، لكن إيناس أصرت مؤكدة للمسكينات الخانعات بأن كرامتها فوق أي اعتبار.

قابلها صديق والدها ببرود مهذب، استمع إليها تحكي له عن المعاملة اللاإنسانية، والشتائم البذيئة التي تتلفظ بها المشرفة نوهت أخيراً بأنها تتقن العمل، ولا تتكاسل لحظة في تأدية واجبها.

صرفها المدير بعد أن قال لها: سأتصرف، إنما لا تنسي أن المشرفة في عمر والدتك، وواجبك احترامها.

ردت إيناس مؤكدة: لكن من واجبها أيضاً احترامنا.

دارى صاحب المعمل ابتسامة سخرية من جواب إيناس، ابتسامة تعني حصراً: هل يوجد إنسان يتمسك حقاً بكرامته في هذا الزمن؟ إذا أراد أن يعيش؟!

فجرت شكوى إيناس تحدياً شرساً لدى المشرفة، بعد دقائق من عودة إيناس إلى مكانها في المشغل، اقتربت منها المشرفة، حاملة السلة التي تحتوي قصاصات القماش والنفايات ودلقت محتواها على رأس إيناس، قائلة: يا حيوانة، أتجرئين على شكواي، يا صاحبة الكرامة!

غمرت النفايات وقصاصات القماش شعر إيناس الكستنائي الطويل، وكتفيها، وعلق الغبار الأبيض على رموشها وانفها، نفضت النفايات عنها، وهبت واقفة، أخذت ترمق المشرفة بنظرات من نار، كزت على أسنانها وسألتها: لماذا تكرهينني؟

ضحكت المشرفة بخلاعة متعمدة لاستفزازها: أأنا أكره

حشرة مثلك.

كورت إيناس يديها، كادت أظافرها تنغرس في باطن كفها، سألتها بصوت متشقق من الحنق: لماذا تعاملننا بهذه الطريقة البشعة؟ لماذا الشتائم والإهانات؟. ألا ترين أننا بني آدمين، ولسنا حيوانات، والله أنا لن أسمح لك بإهانتي، أنت لا تعرفينني، أنا أبيع الدنيا في سبيل كرامتي.

زأرت المشرفة: كذابة، أنت قبلت الأقدام في سبيل الوظيفة، فعن أي كرامة تتحدثين يا صاحبة الكرامة.

قالت جملتها الأخيرة باستفزاز لم يترك لدى إيناس مجالاً للتراجع، ولامتصاص المهاترات ردت بتحدٍ: أنت مخطئة، أكرر لك أن كرامتي فوق أي اعتبار، ولن أسمح لإنسان بإهانتي... حتى لو...

قاطعتها المشرفة وهي مصممة أن تسدد لها ضربات قاضية. قالت بصوت جهوري: كلي خرا.

انفجرت إيناس: بل واحدة مثلك..

هوت صفعة على فمها قبل أن تكمل جملتها، أحست أن أسنانها تنخلع من لثتها، عوت إيناس بألم: يا حقيرة، يا معقدة، يا مرتشية، تطلبين الذهب رشوة من العاملات مقابل بقائهن في العمل، أنت منحطة ومجرمة...

كان صوت إيناس يلعلع، وعيون العاملات يراقبن صديقتهن بحبٍ لا محدود، حب يأخذ أوجه لحظة الوداع،

كن يعرفن أن تلك اللقطة الأخيرة التي ستحتفظ بها ذاكرتهن عن إيناس، إيناس التي لم تختر ظروفها وحياتها.

طردت إيناس من العمل دون أن تقبض قرشاً واحداً تعويضاً عن عملها سنة ونصفاً في المعمل، عام ونصف العام، تقرحت أصابعها من العمل على آلة الحبكة، ومن المقصات المعدنية الباردة الضخمة، وتقرحت معدتها من السندويش الفقير، واهترأت رئتاها من غبار القطن.

خرجت من المعمل إلى الشارع الذي كان يفتح لها كل اتجاهاته لتضيع بها بلا حدود بلا مقاومة، أحست بشيء مزّرق مرضوض ومتورم، يعرج ويئن متوجعاً خلفها، يلحقها، كأنه مربوط بكاحلها بخيط وهمي، شيء كثيف تحسه كظلها تساءلت: ترى ما هذا الشيء... أتاها الأنين من وراء ظهرها: آه، ألم تعرفيني، أنا الكرامة!!

كانون أول /1996

كل شيء بحكمة صنعتْ

لم يحظ حدث في تاريخ البشرية، بالاهتمام، والذهول والسعادة التي شارفت حدّ الجنون، كالاختراع الذي حققه فريق من العلماء بعد سنواتٍ من العمل في مخابرهم السرية، وهو التحكم في عمر الخلية البشرية، وطرد شبح الموت عنها حتى عمر الستين. امتلأت الصحف في جميع أنحاء العالم بعناوين عريضة مثل: لا موت قبل الستين. العلماء يضمنون لك الحياة مهما تعرضت لحوادث وأمراض حتى عمر الستين.

اطرد شبح الموت، ونم بأمان حتى الستين.

كان الاختراع المذهل، كما سمّاه العلماء مادة سموها أكسير الحياة، مادة قادرة على جعل الخلايا حية حتى العام الستين، بعدها تعود السيادة للموت الطبيعي كما يرسمه القدر، للمرة الأولى في تاريخ البشرية استطاع العلم أن يهزم القدر هزيمة ساحقة، ويطرده حتى الستين. دبّ الحماس في

أقلام الكتاب والشعراء، وابدع خيالهم قصصاً وقصائد، تدور كلها حول هزيمة القدر، ذلك العدو الذي أذلّ البشرية قروناً طويلة.

حتى الفئة القليلة التي اعتبرت هذا الاختراع منافياً للأديان، بحجة أن عمر الإنسان مكتوب منذ الأزل في لوحة القدر وجدت نفسها عاجزة عن كبت سعادتها العارمة، فهل توجد سعادة تفوق أن تضمن حياتك حتى الستين؟! أو ليس الله عز وجل أعطى العقل للإنسان ليتوصل إلى هذا الاختراع، ومما ساعد في إجهاض اعتراضاتهم الشكلية، كون القدر يعود لسيادته بعد الستين.

المذهل في كل هذا الاختراع أن أكسير الحياة، مادة أطلقها العلماء بشكل بخار، غمرت كوكب الأرض، وكل من تنفسها كسب حياة، مؤكدة حتى الستين، ولم يبق إنسان على وجه البسيطة لم يتنفس أكسير الحياة، أصاب القلق الجماعي سكان الكوكب الهائج بالاختراع الجديد، فلم يغمض لهم جفن ليالي عديدة، وحدهم الأشخاص الذين تجاوزوا الستين، أحسوا بالغبن وخيبة الأمل، لأنهم لم يستفيدوا من الاختراع الجديد، كان لسان حالهم يقول: أما كان باستطاعة العلماء التحكم بموت الخلية البشرية حتى عمر السبعين أو الثمانين؟! لكن مشاعرهم سرعان ما وجدت طريق العزاء، وهم يعون أنهم عاشوا امتياز الاختراع الجديد، بشكل عفوي وطبيعي.

تبلبلت الدنيا بهذا الاختراع، ولم يبق قانون إلا وخضع لهزة، لم تبقَ حقيقة إلا وأعيد النظر فيها، امتلأت النفوس بمشاعر عنيفة متناقضة من فرح وقلق وشك وذعر، وأمان، أحس الناس كأنهم يتعرفون على الحياة للمرة الأولى. الآن لا خوف على جنين من الموت، ولا على مريض، ولا شخص تهشم بحادث سيارة، فإكسير الحياة يجدد الخلايا مهما كانت أذيتها حتى عمر الستين.

لم يمض شهر على الاكتشاف المذهل للعلماء، حتى انفجر خلاف عنيف بين الأشخاص تحت عمر الستين، وأولئك الذين تجاوزوا عمر هزيمة القدر، طالب الشبان بنقل كل المناصب والسلطات والقرارات الحيوية، لأيديهم، لأنهم يقفون في الجانب الآمن من الحياة، لم يرض الفريق المقابل الذي يهزمه قدره، ويسلط عليه شبح الموت كل لحظة بمنطق الشباب ردوا بقهر: بان عُمر الحكمة والخبرات هو عمرهم، لكن الفريق الذي هزم الموت رد بجسارة وقحة بأن الضمانات الآن في أيديهم، وبأن انتصار خلاياهم على الموت يعطيهم كامل الحق في رسم شكل الحياة التي يريدونها، وبأن الأشخاص بعد الستين ليسوا سوى ضيوف ثقيلي الوطأة عليهم ينتظرون سخرية قدرهم لينهي حياتهم.

لم يتوصل الفريقان المتنازعان حول رقم ستين لحل يرضي الطرفين، سرعان ما انقسمت المدن إلى قسمين، قسم يعيش فيه الأشخاص قاهرو الموت، وقد علق كل

منهم لافتة على باب بيته وداعاً أيها الموت السخيف أو لا مكان لك عندنا أيها الموت، وقسم يعيش فيه الأشخاص الذين تجاوزوا الستين، الذين سموا أنفسهم ضحايا الاختراع الجديد، لأنه ضيع هويتهم واستقرارهم النفسي، ونفاهم تحت خيمة الموت، يذكرهم بها كل لحظة، وبلغ الخلاف حد الانفجار بين الفريقين، وخشي المتنورون من اندلاع الحرب، وتشكلت وفود للتفاوض توصلت بعد اجتماعات مكثفة إلى أن يستقل كل فريق بقوانيه، وأن توضع قوى لحفظ الأمن على الحدود.

ومع الزمن تحقق نوع من النظام والتواطؤ الضمني بين الفريقين، كان كل شخص يقترب من الستين ينتقل بشكل روتيني ليعيش في أحياء من يخيم على حياتهم شبح الموت.

سرعان ما فرضت العزلة نفسها بين العالمين، فصار لعالم قاهري الموت هواياتهم الخاصة ومسارحهم وقصصهم وبرامجهم التلفزيونية. كان يمكن للحياة أن تسير بشكلها الطبيعي، ولهيجان الفرح أن يستمر، لولا تنبه العلماء أنفسهم الذين اخترعوا أكسير الحياة، إلى أن ثمة أمراضاً نفسية جديدة، أخذت تتفشى في جيل قاهري الموت، شكا الأهل من كسل أولادهم، وتهربهم من واجباتهم المدرسية والجامعية، أما الحجة الدافعة للأولاد بأن أمامهم الكثير من السنوات للعمل والدراسة! فلم العجلة؟! كما تضاعفت

الجرائم والسرقات مئات المرات عن معدلاتها قبل اكتشاف أكسير الحياة فما عاد سكان الدول التي تشكو المجاعات يموتون، رغم سحنة الموت في وجوههم، لكن خلاياهم ظلت تخفق بالحياة والحركة، أصيب الأغنياء بذعر من غزو الفقراء لثرواتهم... الناس كلهم أصيبوا بذهول، أدى لفقد العديد منهم قدرتهم على النطق، وهم يتفرجون على جرائم مثل إطلاق النار والطعن بالسكين، كيف لا تؤدي إلى الموت، لأن الخلايا المتجددة أبداً سرعان ما تلتئم وتدب فيها الحياة!

دفع الأغنياء مبالغ خيالية للعلماء ليساعدوهم في اكتشاف طرق جديدة لتحصين ثرواتهم من غزو الفقراء. لم يمض عام على الاكتشاف المذهل حتى تحول الكوكب الهائم في الفضاء بساكينه إلى كرة من حقدٍ ونار وغضب، وموت كل لحظة دون موت فعلي.

تجرأ بعض الكتاب، وكتبوا أن الموت القدري ألطف وأكثر رحمة بالبشرية من أكسير الحياة الذي هزم الموت ونفاه إلى ما بعد الستين.

انفجرت الأرض بالكثافة السكانية، وأخذ الفقراء قاهرو الموت يتسللون عبر الحدود إلى المناطق التي يسكن فيها الكهول ليرتكبوا جرائم لم يشهد التاريخ مثل بشاعتها، وامتلأت الشوارع بجثث الكهول المساكين الذين تجاوزوا الستين، تنشط الصحفيون والتقطوا صوراً لأطفال المجاعات

يغزون عالم الأغنياء، الكاميرات الخفية صورت مشاهد عجيبة لأطفال، لا يتجاوزون العاشرة من عمرهم، يسرقون دكان صائغ، وكيف أطلق الصائغ النار في رأس أحد الأطفال، لكن المصاب ضحك وهو يعلق قائلاً: سيلفظ جسمي هذه الرصاصة بعد قليل، هل نسيت أنني محصن ضد الموت، جن الصائغ وتمنى لو يقتل نفسه ويرتاح من حياة الجنون والرعب هذه، لكنه كان يعلم أنه محروم من هذه النعمة أيضاً. صعق الناس بحوادث لم يتعرضوا لها من قبل اكتشاف أكسير الحياة، فذات صباح ضجت الصحف بصراخ صحفية شابة تعرضت لصدمة عاطفية زلزلتها، أرادت على أثرها أن تنهي حياتها فلم تتمكن، رغم أنها تناولت مئة قرص منوم، وحزت شرايين معصمها بمشرط حاد، لكن كل خلاياها عادت للترمم وواصلت الحياة، انفلت صراخها عبر صفحات المجلات: لا أريد أن أكون عبدة للحياة، أريد حريتي، أريد اختيار لحظة موتي، أريد قدري الذي لا أملك زمامه. كانت أول من تجرأت على نقد الاختراع الاسطوري، ولكن ما إن انفجرت صيحتها حتى تتالت الصرخات، وغزا ضحايا الاختراع شاشة التلفاز، وعرضوا مآسيهم الجديدة... إحدى الأمهات لم تتمالك من ضبط أعصابها أمام المذيع بكت وهي تقول بأن ابنتها في السابعة عشرة من العمر، قررت أن تعمل عاهرة عدة أعوام، ثم ستتابع دراستها وستتزوج عندما تقترب من الأربعين لتنجب طفلاً محققة إرواء نزعة الأمومة في نفسها، وبأنها

قبل الاختراع كانت مخطوبة لشاب مكافح تحبه، وقد تعاهدا على الزواج، لكن الاختراع مكنها من الإمساك بسنوات طويلة من حياتها، وبالتالي غيرّ أخلاقها، رجل مسكين على أعتاب الستين، أصيب بكآبة حادة وهو يقول بأنه لا يطيق الابتعاد عن أحفاده والانتقال للعيش في القسم المخصص لمن تجاوزوا الستين من عمرهم، وبأنه سيتأذى -هو وأحفاده- من القطيعة المفروضة عليهم من قبل القيمين على تنظيم الحياة بعد الاختراع.

إحدى السيدات عبرّت بصراحة لا متناهية، عن أنها أصيبت بما تسميه جفافاً عاطفياً بعد الاختراع، وبأنها لم تعد تخشى على أولادها من الموت والمرض وحوادث السير، وتساءلت: ترى هل يؤكد أكسير الحياة على مستوى العاطفة وعمقها، فأنا أشعر أنني متجففة من العواطف ولم أعد أهتم بأطفالي وأقبلهم كالسابق، وليس أطفالي فقط، بل كل من حولي، أحس أنني لست أنا. مئات التساؤلات كانت تنبثق كل يوم، مئات الأوضاع الغريبة والشاذة... أحست البشرية أنها متورطة بالاختراع، وبمشاكل مخيفة ما كانت تحسب لها حساباً. هبت مظاهرات قادها الفقراء لغزو عالم الأغنياء، وقد حملوا لافتات كتبوا عليها: لم نعد نخشاكم، لأننا قهرنا الموت. ما عاد البشر، يشبهون ما كانوا عليه، كانوا مخلوقات تعرف بشكل غامض أنها كائنات بشرية... أصيب العلماء بذعر، عادوا إلى مخابرهم السرية يعملون ليل نهار، لإبطال مفعول أكسير الحياة الذي تجرأ وتحدى

القدر !!.

كانون الأول 1996

رقم إيداع مكتبة الأسد الوطنية :

موت البجعة: **مجموعة قصصية/ هيفاء بيطار – [دمشق]:**
اتحاد الكتاب العرب، 1998– 158ص؛ 20سم.

1– 813.01 ب ي ط م

2– 813.009561 ب ي ط م

3– العنوان　　　　**4– بيطار**

ع– 1998/1/66　　　　**مكتبة الأسد**

□

هذا الكتاب

مجموعة قصصية تتناول مظاهر مختلفة من حياة الناس العاديين وغير العاديين .تتناول عوالم المرأة ومشكلاتها وهمومها، وتهتم بالأفكار والرؤى من أجل نصرة المرأة موقفاً وسلوكاً، وهي قصص متميزة تكشف الظلم الاجتماعي والزيف الأخلاقي، وتثير التعاطف مع البؤساء والعجزة، وتوقظ الرحمة والرغبة بالخير.